محمد مهدي الجواهري

شاعر الكلاسيكية الفخمة

موسوعة أعلام الشعر العربي الحديث

محمد مهدي الجواهري

شاعر الكلاسيكية الفخمة

إعداد ودراسة: هاني الخير

أعلام الشعر العربي الحديث /محمد مهدي الجواهري/
شاعر الكلاسيكية الفخمة
إعداد ودراسة: هاني الخيّر
سنة الطباعة: ٢٠١٠.
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.
الترقيم الدولي: 1 - 39 – 410 – 9933 - 987
جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:
دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٩٦٣
تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٩٦٣
ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

((عشت حياة عاصفة، اختلطت فيها عوالم بعوالم، الفقه بالشعر، والشعر بالسياسة، والسياسة بالصحافة، والصحافة بالحب، والحب بالصداقات، والبؤس بالنعيم، والتوطن بالترحل، والطفولة بالرجولة)).

محمد مهدي الجواهري

إضاءة

الجواهري شاعر الكلاسيكية الفخمة

ولد الشاعر محمد مهدي الجواهري سنة /١٩٠٠م/ كما نرجح، في النجف في أسرة عريقة ذات سمعة طيبة، في العالمين العربي والإسلامي، تضع العلم والتراث ومكارم الأخلاق في المكان الأول.

فكان لهذه المؤثرات دورها البارز في تكوين سمات شخصيته ونضوج شاعريته. وقد عُرفت أسرته باسم "الجواهري"، وهذه التسمية تعود بجذورها إلى قريب هو الشيخ محمد حسن أحد الفقهاء في عصره، ألَّفَ كتاباً عظيم الأهمية أطلق عليه اسم "جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام" للمحقق الحلي، كان أحد ثلاثة كتب لا يمكن أن يصل طالب العلم إلى مرتبة الاجتهاد ما لم يدرسها.

درس شاعرنا على أيدي كوكبة من الشيوخ وأخذ عنهم، كما كان سائداً في عصره، علوم النحو والصرف والبلاغة، والمنطق، والفقه. وقد نشأ نشأة دينية صارمة، واعتمر العمامة في بدايات حياته، وهو يذكر لنا أن الشيخ الذي درس عليه ويسميه "جناب عالي" كان يجمع بين الوقار والجمال الممزوجين بالقسوة والغلظة. وكان يملك صندوقاً مليئاً بالعقارب يحمله معه، ولا يتورع عن فتحه وتهديد الأطفال به كلما دعت الحاجة. ولذلك بات الشاعر مسكوناً بالهواجس السوداء. اعتاد أن يفيق في الليل مذعوراً من العقارب. العقرب يلازمه، يتبدى له في يقظته كما في حلمه. يقول الجواهري:

"اليوم. اليوم. وقبلها البارحة. نمت ساعة العصر ورأيتها بشكلها المقيت الكريه تملأ الغرفة... وأفقت مرعوباً!... أريد أن أذكر يوماً واحداً من هذا العمر الزاحف الطويل والثقيل ـ في بعض الأحيان ـ لم تزرني فيه هذه الأطياف" إن ذلك ليبدو مستحيلاً. من أين جاءت هذه العقارب؟ ثمة وكر في أعماق الذاكرة واللاشعور تخرج منه لتنقض عليك".

يروي الشاعر عن طفولته، على حد تعبير الدكتور ميشال جحا، كيف أنه لم يخف الأفعى، وكيف أنه كان يبقى في الليل ساهراً وفي حالة يقظة، بعد أن ينام الجميع، وليل النجف يماثل ليل الصحراء، حيث الصمت الأبدي والسكون المطلق.

ينام على سطح منزله... ظهره إلى الأرض... وعيناه شاخصتان ببراءة إلى النجوم المضيئة، كأنه ليس من سكان هذا الكوكب الأرضي وهو فيه، لينتقل على أجنحة الحلم الأثيري إلى أجواء بهيجة نابضة بالسحر الصادر عن طهر الطفولة.

وبفضل نباهته... وقوة ذاكرته العجيبة كان الجواهري، وهو في مرحلة الطفولة تقريباً، يحفظ في نهاية كل يوم فقرات خطبة من كتاب "نهج البلاغة" للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقطعة من كتاب "الأمالي" لأبي علي القالي، وقصيدة من ديوان "المتنبي" الجد الأكبر للشعراء العرب، دون أن يهمل تلاوة وحفظ آيات من القرآن الكريم. وقد كسب جائزة من والده مرة ومنحه ليرة ذهبية حقيقية، لأنه حفظ /٤٥٠/ بيتاً من الشعر في مدة لا تتجاوز ثماني ساعات.

وكان لنشأته في النجف أن اكتسب من البيئة النجفية النزعة الاستشهادية، وروح المغامرة، وركوب المخاطر دون وجل أو تردد، فكان يجنح إلى التحدي والتمرد والثورة. وهو ما كان يروق له سوى الشعر، وأن يستمع إلى شاعر ينشد شعره في ندوة أدبية أو في مجلس. فالشعر كان يحتله ويجعله يتعبد في محرابه بخشوع وصفاء، ولا يخفى على القارئ الكريم أن النجف كانت متميزة بكثرة الشعراء الكبار فيها.

وتجدر الإشارة... إلى أن الجواهري كان نهماً في مطالعاته الحرة، يقرأ دواوين الشعر القديم والحديث، وكتب الأدب واللغة والفلسفة، وكذلك الأدب العالمي

المترجم إلى لغة الضاد، وقد حفظ دون عناء وبأيسر جهد ديوان المتنبي.

وفي بدايات شبابه كان شاعرنا يوزع المنشورات السرية والبيانات الثورية في النجف ضد الانجليز الذين سيطروا على مقدرات وطنه. ومن طريف أخباره أنه حين زار سورية ولبنان سنة /١٩٤٤م/، حظي بترحيب من رجالات الأدب والفكر، ومن نجوم المجتمع، وكان أن عاد إلى وطنه ترافقه فتاة جميلة تدعى "رمزية" زوجة له. ولكن هذا الزواج لم يدم أكثر من ثلاثة شهور، عادت بعدها الزوجة إلى أسرتها في لبنان.

ومن المفارقات أن الجواهري عندما ألقى قصيدة سنة /١٩٤٥م/، انتصاراً لقضية فلسطين مطلعها:

خـــذي مـــسعاكِ مثخنـــةَ الجـــراحِ
ونـــامي فـــوقَ داميـــة الـــصفاح

ومُـــــدِّي بالمـــــات إلى حيـــاةٍ
تـــسرُّ وبالعنـــاء إلى ارتيـــاح

علّق أحد الأدباء الظرفاء الخبثاء في حينه على ذلك زاعماً إن الجواهري لا يقصد بذلك نكبة فلسطين بوعد "بلفور" وما نجمَ عنه، وإنما يقصد نكبته وكارثته بفرار زوجته منه وعدم عودتها إليه.

عمل في التعليم ثم في التشريفات الملكية في بلاط الملك فيصل الأول، ثم استقال من الوظيفتين لينصرف إلى مزاولة الصحافة في بلاط صاحبة الجلالة.

أما سبب تركه وظيفته المرموقة في التشريفات فهو أنه نظم سنة /١٩٢٩/ قصيدة عنوانها "جربيني!" نشرها في جريدة "العراق" العدد /٢٩٠١/ في /٢٣/ تشرين الأول /١٩٢٩/ جاء في مطلعها:

جـــرّبيني مـــن قبـــل أن تـــزدَريني
وإذا مـــا ذممـــتني فـــاهجريني

ويقينــــاً ســـــتندمين علـــــى أنـــــكِ
مــــن قبـــــلُ كنـــــت لم تعـــــرفيني

أنـــــا ضـــــدٌّ الجمهـــــور في العـــــيش
والـــتفكير طـــرّاً وضــــدُّه في الـــدين

وحين سمع الملك بهذه القصيدة استدعاه على عجل وقال له:

ـ أيجوز أن يصدر هذا الكلام عن ابن الشيخ صاحب الجواهر؟!

أجابه على استيحاء:

ـ إنه كلام شعراء... والشعراء يتبعهم الغاوون...

قال الملك الغاضب:

ـ وماذا عن الخروج عن الدين ومساسه.

قال الجواهري:

ـ أعتذر ولن أعود إلى ذلك مرة ثانية إن شاء اللّه.

وما إن تخطى الجواهري القصر بعدة أمتار، حتى همس في نفسه: سأعود... وأعود.. وأعود.. ثم نظم قصيدة يقول فيها:

قـــال لـــي صـــاحبي الظريـــف وفي الكـــفّ
ارتعـــــاشٌ وفي اللـــــسان انحباسَـــــهْ

أيـــــن غـــــادرتَ عِمّـــــةً واحتفاظـــــا!
قلـــــتُ: إنـــــي طرحتهـــــا في الكناسَـــــهْ

ثم كان أن هجر العمل الرسمي، بعد أن مكث فيه حوالي ثلاث سنوات، واتجه سنة /١٩٣٠/ نحو عالم الصحافة بخطوات جريئة.

يميل شاعرنا إلى النظم المطول، ولكنه لا يُسفّ، وفي شعره نجد شواهد كثيرة لا حصر لها، على الشاعرية المتوقدة، وعلى المثالية الرفيعة، وعلى الديباجة الجزلة الفريدة في صياغتها الكلاسيكية الفخمة، حينما هي من الوقت ذاته تعلنُ أنها خادمة وحيه، وليست بالمسيطرة التي يحتمي وراءها النظامون السطحيون.

والحق يقال... فما من قصيدة لهذا الشاعر الكبير إلاّ وهي مشرقة بأطياف وألوان فنية عديدة، وما من قصيدة له إلاّ وهي برهان دامغ على أن الشاعر المطبوع القدير المتضلع من لغته، لا يخضع للقافية ولا للفظ، بل إنها طوْعُ قلمه طواعية "الطين" لأنامل النحات، وما من قصيدة له إلاّ وهي صاحبة رسالة لجميع الأحرار، لأن شعره يساهم في الدفاع عن حقوق الإنسان وكرامته قبل أن يشغل نفسه بقضايا هامشية لا طائل منها، على حد تعبير الدكتور الشاعر أحمد زكي أبو شادي.

ومما يسترعي الانتباه في معظم شعر الجواهري، أنه شاعر مناسبات. ولكنه صنو المتنبي، يتخذ المناسبة وسيلة للتعبير عما يعرض له في الحياة من شتى الخواطر ومختلف الانفعالات. تأثر شعره بالقديم، فبارى أقطابه حتى بزّهم، وطعّمه بالجديد وأفكار العصر الثورية. تغزل بالمرأة، ووصف بهاء وروعة الطبيعة، ولكن أعظم شعره ما اتصل بالحياة، وعرض لمأساة المجتمع والبلاد، فندَّد بالحكّام، وحمل على المستعمر، وحارب المتزمتين، وطعن الإقطاع، ولم يسكت عن الحاكمين بل نقدهم مراراً، وكان نقده لهم ساخراً يطفح بالاحتقار والاستخفاف، ويدعو إلى الثأر منهم في صراحة وجرأة نادرتين.

ومن مزايا أسلوبه: الصدق في التعبير، والقوة في البيان، والحرارة في الإحساس الملتحم بالصور، كالتيار في نَفَس ثوري ملحمي، وموسيقى صاخبة قد تغفر له أحياناً بعض التعسّف أو الخشونة في الألفاظ، أو التعقّد في التركيب، على حد تعبير الأديب أحمد أبو سعد.

وباختصار... فإن شاعر العرب محمد مهدي الجواهري، أسهم بقلمه وشعره في حركات التحرر والنضال في العراق وسائر الدول العربية. ولقي من جراء ذلك الأذى، واضطهد، وأصيب بأخيه الشهيد جعفر، ولما لم ينفع معه الاضطهاد

والتعسف، لجأ الحاكمون لمساومته وقدّموا له النيابة، وكاد يعتريه الضعف أمام هذه الإغراءات والمكاسب المالية الهائلة. ولكنه عاد للتحدي والصمود، ومقارعة السلطات الحاكمة، فكانت النتيجة خروجه من العراق، لينتقل بين العديد من العواصم العربية والأجنبية، وكانت محطته الأخيرة في سورية التي دفن في ثراها، وبمكان أدق في مقبرة "السيدة زينب" بدمشق، كما أن شقيقته "نبيهة" دفنت في مقبرة السيدة زينب. وفيها يقول الشاعر ارتجالاً وهو يخاطب جثمان شقيقته، وكأنه يفقد أمّاً، أو يتذكر شقيقه الشهيد جعفر، هي أخته.. وحبيبته.. هي رفيقة دربه..ومنبر صوته.. هذه الأخت الحبيبة التي ودعها الجواهري وهو يذرف دموعه الغالية، **وكان ذلك ظهر يوم ١٩/٧/١٩٨٧م/:**

حبيبتي نبيهة

نبيهةُ إن الحياةَ ملعَبَهْ — ونحن فيها "طابةٌ" ومضرَبَهْ
رهنَ الليالي كيف ما دارت بنا — كعقرب "الساعة" رهنَ الذبذبهْ
حبيبتي "نبيهة" كيف ذوتْ — معجلة بسمتك المحبّبهْ؟
كيف انطوتْ تلك الليالي طائفاً — ما كان أشهى زوره وأكذبهْ؟
حبيبتي ونحن والخلقُ معاً — أسرى طيوف حلوة ومرعبهْ
نجتازُ ألفَ غصة وغصةٍ — تعتاقنا ناسين هذي العقبه
ما أخبثَ العمرَ بما يخدعنا — حتى نخال أنه ما أطيبه
يمرضنا غدراً.. وريثَ ننتهي — نسقى الدواء علقماً لنشربه

كـــم ميتـــةٍ لفـــت وحيـــد أمـــه　　　لا أمَـــــهُ فـــــدت بـــــه ولا أبـــــه

أتعـــب بالـــذكرى الـــشقيين بهـــا　　　وهـــو بمـــا لاقـــاه أنهـــى تعبـــه

حبيــــبتي "نبيهـــــة" ســـــنلتقي　　　عمـــا قليـــل عنـــد هـــذي "المتربـــه"

عـاش الجـواهري في غـربتين: غربـة داخليـة، داخـل وطنـه، وغربـة خارجيـة لـدى تركه العراق وتنقله في بلاد عدة، حتى وفاته في دمشق ١٩٩٧/٧/٢٧م/، بعيداً عن أرض بلاده.. أرض الآباء والأجداد.

ومع انه عـاش حـوالي ثلـث القـرن في الغربـة، قـسم منهـا في بـراغ، فإنـه لم يتـأثر بالتيارات الشعرية الغربية. ذلك لأنه كان قد تخطى الستين من عمره، ولأن مخزونه من الشعر والأدب العربي، وتعلقه بتراثه وعدم إتقانه لغة أجنبية تمكّنه من قراءة الشعر الأجنبي، كل ذلك حال دون تأثُّره، على حد اعتقاد الدكتور ميشال خليل جحا. وقد مكنته ذاكرته الفذة المدهشة، من حفظ الشيء الكثير من ديوان المتنبي، وأبي تمام، والبحتري، وأبي نواس، والشريف الرضي، وحافظ ابراهيم، وأحمد شوقي.

كيف ينظم الجواهري قصائده؟

يروي الأديب سليم طه التكريتي، صديق الجواهري والذي عايشه أكثر من ربع قرن، وعمل معه في صحيفته (الرأي العام) التي كان الجواهري يصدرها في العراق، هذه اللقطة الطريفة المستمدة من صميم حياة الجواهري، ونحن إذْ ننشرها كما وردت فإننا نهدف إلى مساعدة القارئ العربي الكريم، لدخول عالم هذا الشاعر العملاق:

((ينفرد الجواهري بطريقة فريدة وغريبة لا تضارعها طريقة أخرى، في نظم قصائده. فلم يكن من عادته حين كان يدعى إلى إلقاء قصيدة له في حفل معين أو مهرجان، أن يكتب قصيدته كاملة على القرطاس، كما يفعل بقية الشعراء، وإنما يكتفي بورقة صغيرة يحملها في يده حين يشرع بإلقاء القصيدة، يدون عليها بعض الحروف أو الرموز، وما تلك الرموز في الواقع سوى بعض الكلمات الأولى من بعض أبيات القصيدة، أو قوافيها. كما أنه لم يكن من عادة الجواهري أن يقرأ لأي من أصدقائه إلاّ نادراً جداً، حتى وإن كانوا من الشعراء المعتبرين في نظره، ما كان ينظمه قبل أن تكتمل القصيدة أو تكاد. وقد يحدث أحياناً أن ينظم أبياتاً من قصيدة ثم يهملها فلا يعود لإكمالها إلاّ بعد سنوات عديدة.

حدث في أواخر سنة /١٩٤٤/ أن قررت الحكومة الأفغانية نقل رفات "جمال الدين الأفغاني" من مرقده في اسطنبول، إلى موطنه الأصلي في الأفغان، وتقرر أن يمر الرفات ببغداد في طريقه إلى العاصمة الأفغانية كابول. ولقد اغتنمت الحكومة العراقية آنذاك، وكان على رأس الوزارة فيها المرحوم حمدي الباجه جي في وزارته الثانية، هذه الفرصة لتعبر عن حسن نواياها إزاء الحكومة الأفغانية المشاركة في ميثاق سعد آباد، ولتتظاهر بالتدليل على تكريمها للشخصيات الشرقية العظيمة، فأعلنت عن إقامة حفل تكريمي للأفغاني بهذه المناسبة في ساحة مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني، وذلك في صبيحة يوم الخميس الرابع عشر من شهر كانون الأول "ديسمبر"، واختير الجواهري لأن يكون شاعر الحفل المذكور.

وقبل أن يبدأ الحفل بيوم واحد سألته عما أعدّ للمناسبة فأنبأني بأنه قد أكمل نظم قصيدته الرائعة عن الأفغاني ومطلعها:

هويــــت لنـــــصرة الحـــــق الـــــسهادا

فلـــــولا المـــــوت لم تطـــــق الرقـــــادا

كذلك طلب إليّ أن نعد العدة لإصدار عدد خاص من جريدة "الرأي العام" عن الأفغاني. وقد صدر ذلك العدد فعلاً بست صفحات في يوم الجمعة السادس عشر من كانون الأول "ديسمبر" سنة /١٩٤٤/.

وكعادته كان الجواهري قد كتب "رموز" قصيدته عن الأفغاني، على علبة السكاير التي كانت في جيبه. وفي الصباح المقرر لإقامة الحفل، تفقد الجواهري علبة السكاير الفارغة التي تحمل الرموز فلم يجدها، ولم يكن لديه متسع من الوقت ليعيد نظم القصيدة مجدداً، والتي دفع بأجزاء منها للمطبعة لتنشر في العدد الخاص. وراح يزبد ويرعد ولم تهدأ ثائرته إلاّ بعد أن عثرت أنا على علبة السكاير التي تحمل "الرموز"، موضوعة تحت المذياع، فأخذها مسرعاً وانطلقنا نهرول إلى الشارع حيث أوصلتنا إحدى سيارات الأجرة إلى الحضرة الكيلانية لنجد أن الحفل قد بدأ، ولكن دور الجواهري فيه لم يحن بعد)).

الابن فرات الجواهري يتحدث عن أبيه

كانت مجلة "الحوادث" قد أجرت حواراً مطولاً مع الكاتب فرات الجواهري، حول شعر والده الشاعر محمد مهدي الجواهري، ومواقفه وأفكاره، ونظراً لأهمية هذا الحوار، لأنه يلقي الضوء على نفسية شاعرنا الكبير وتكوينه الأدبي، فإننا نعيد نشر أبرز ما جاء في هذا الحوار. يقول فرات الجواهري:

ـ أسرة نجفية دينية وتراثية وشعرية هي التي ساهمت في صنع الجواهري. كان والده شاعراً، وشقيقه شاعراً، وابن عمته شاعراً. وكانت أسرته تعامله بقسوة فيما يتعلق بدراسة التراث وحفظه وإجادته. كان يحفظ في الليلة الواحدة أربعمائة بيت، وكان يتبارى مع أقرانه في ذلك أمام أساتذتهم. وكانت الجائزة أحياناً بعض النقود يذهبون بعدها إلى السوق ويشترون بها كيلو "بقلاوة" مثلاً.

ـ لم يحرق الجواهري الشاعر مراحله الشعرية، كما يفعل بعض أغرار الشعراء اليوم، بل خطاها بخطى وئيدة متزنة مرتبطة لا بتطوره الشخصي فحسب، بل بتطور مجتمعه أيضاً.

ـ قصائد الجواهري العظيمة، التي كان لها الأثر الكبير في نفوس الجماهير، كانت حاله أثناء وضعها، كحال المرأة الحامل التي تعاني آلام المخاض وقلقه وانفعاله. يصل الجواهري عند ميلاد القصيدة إلى ذروة الانفعال والحساسية، والطريف أنه يصل أيضاً إلى قمة المرح.

ـ كان الجواهري ولا يزال صديقاً للشعراء المجددين الأصلاء، وعلى صفحات جريدته "الرأي العام" نشر أشعار هؤلاء. إنه لم يفهم التجديد الشعري على أنه تجديد في التفعيلة والشكل، وإلا فهل كان عاجزاً عن اختلاق تفعيلة جديدة ينظم بها، وإيجاد تخريجات جديدة من العروض الخليلي.

ـ لم يكن هناك في نظر الجواهري فكر معين هو وحده الفكر التقدمي. الفكر التقدمي عنده فكر متطور دائماً. ما هو تقدمي اليوم قد لا يبقى تقدمياً أبداً.

ـ الجواهري في مجمل ما يمسه شخصياً مفرط الحساسية، وأحب أن ألقي في الضوء هامشاً حول هذه النقطة يتعلق بذاتية الفنان، وذاتية الفنان الأصيل لو لم تكن ذاتية الجواهري هي محور من كونه ومن عوالمه كلها لما كان الجواهري عبقرياً، ولكان أصبح في عداد الناظمين والعابرين على الشعر العربي والثقافة العربية. هناك ازدواجية بين أصالة الإبداع الفني عند الفنان، بما فيه الشاعر، وبين اعتزازه بذاتيته إلى الدرجة التي قد يصل إلى الربوبية، كما حصل عند شعراء سابقين كالمتنبي مثلاً في أبياته التنبؤية. لم تكن تلك الأبيات أبياتاً عابرة أو سطحية أو منحولة:

مـــا مقــــامي بــــأرض نخلــــة إلا

كمقــــام المــــسيح بــــين اليهــــود

إنها أبيات تعبر عن جموح ذاتية الفنان الأصيل.وهذا الجموح لا يتوفر إلاّ عند الأصلاء، ومن هؤلاء الجواهري. قد يتصور البعض أن موقف الجواهري منا هو موقف تعال أو استكبار، وقد سماه بعض الكارهين والحاسدين غروراً أو تعالياً. الجواهري حريص على ألاّ يساء له من قريب أو بعيد:

أقــــول لنفــــسي إذا ضــــمها

وأترابهــــا محفــــل يزدهــــى

تــــسامي فإنــــك خــــير النفــــوس

فإنــك قــيس كــل علــى مــا انطــوى

تــــسامي فــــإن جناحيــــك لا

يقــــران إلاّ علــــى مرتقــــى

كــــذلك كــــل ذوات الطمـــا ـــ

ح والهــــم مخلوقــــة للــــذرى

هذا ذاتية والذاتية أناط بها الجواهري شروطاً: إذا قيس كل على ما انطوى، ولم يطلقها إطلاقا. إنه يعيش في عصر، وهذا العصر مشوب بالعديد من الشوائب والمثالب والنواقص، كأي عصر لا تسوده العدالة الاجتماعية. إنها عوالمنا الحالية، فما ينيل الجواهري من نقص لا يأتي إلا مما لصق به من مجتمعه، لكن إذا قيس كل على ما انطوى، يصبح الجواهري أميز من غيره.. وهكذا فالاعتزازية ليست غروراً.. وأكبر دليل على أنها ليست كذلك أنه أشرطها ولم يطلقها.

ـ ليس الجواهري مجرد شاعر سياسي كبير، ولكنه شاعر كبير في شتى أبواب الشعر وقصائده في "المقصورة" و"وصف دجلة" و"أجب أيها القلب" و"أنيتا" وعشرات سواها خير دليل على أنه الشاعر الكبير من الناحية الفنية قبل كل شيء.

ـ لم تكن المرأة في شعر الجواهري مجرد كائن مشتهى، بل شيئاً يتجاوز ذلك كله. ولكن ليس هناك من "امرأة" واحدة. هناك الأم، والأخت، والزوجة، والحبيبة، والغانية، وفي كل منها قال الجواهري ما يناسب. ولكن للجواهري، كما لا يخفى على أحد، ليال عابرة "يتونس" بها، وهو حتى الآن يحب مثل هذه الليالي إذا توفرت، وإذا وفرتها أجواء خالصة وحميمية...

ـ الجواهري لا يستطيع الالتزام بإطار حزبي معين، حتى ولو كان الحزب حزبه. فقد شرع في تأليف حزب سياسي مرتين مع عبد الفتاح ابراهيم، ولكنه في المرتين لم يستطع الالتزام حتى بإطار حزبه.

ـ خروج الجواهري من البلاط لم يكن في حالة انفجار تناقض. كان خروجه حالة رضائية، قرار رضائي بإصرار من عنده، وبإصرار من الملك فيصل أن لا يستقيل الجواهري من البلاط وأن لا ينصرف الجواهري إلى إصدار جريدة "الفرات" عام /١٩٣٠/. إصرار الملك فيصل كان على أن لا يخرج الجواهري من البلاط، لأن الملك بحدسه الذكي كان يدرك ناحيتين: أن الجواهري داخل البلاط الملكي محيد تجاه الفئة الحاكمة، أما إذا خرج من البلاط الملكي فإنه يصبح في حل من هذا الحياد. النقطة الثانية أن الجواهري سيخرج من البلاط الملكي ليصدر جريدة سياسية. إذن سيعاد فتح الأبواب أمام الجواهري للالتصاق بالقضايا العامة بدلاً من

أن يبقى جالساً في قصر القضايا الخاصة، الذي هو القصر الملكي، ومع ذلك عوقب الجواهري على فعلته هذه، فما أن خرج من البلاط الملكي وأصدر جريدته حتى قدر لهذه الجريدة أن لا يطول عمرها أكثر من أشهر معدودة. لقد تربصت بها الفرص كي تغلق في أول سانحة يتيحها حكم النظام. أغلقت ومات الوليد بالنسبة للجواهري، وهو وليد عزيز وأصبح عقدة أو ظاهرة نفسية عنده أن كل مطبوع له في الصحف التي أصدرها سرعان ما يخفت صوته...

ـ نأتي إلى ورم قلب الجواهري من النقاد. يمكن أن أصنف النقاد هؤلاء إلى ثلاثة أصناف:

المعجبون بمن فيهم المؤلهون.

الكارهون إلى درجة النكران الكلي لشاعرية الجواهري، وهذا القول يفضح نفسه، يفضح مدى الحقد الذي تتخلله عوامل عديدة من أبرزها الخيبة والقصور لدى هؤلاء سواء من ناقدين أو من شعراء منتقدين. هؤلاء سهلة قضيتهم ومن اليسير التعامل معهم سواء من هو معجب، يشرح ويعمق ويبين ويوضح شعر الجواهري، ويقيمه ويميزه على غيره، أو أولئك الذين يشهرون سيف الحقد، وهو سيف مفضوح ومثلوم ومن السهل تحطيمه أيضاً.

إنما هناك صنف آخر من الناقدين اللئام. أولئك الذين يحاولون بكل وسيلة، ولحسن الحظ أن كافة وسائلهم مفضوحة، تهمل وتجاوز ذكر الجواهري وتحبك مؤامرة الصمت حوله، كأن يجري الحديث عن الشعر العراقي الحديث فيقولون: وشهد القرن العشرين في العراق شعراء بارزين كالرّصافي، والزهاوي، والشيخ علي الشرقي، ومحمد رضا الشبيبي، وبدر شاكر السيّاب، ونازك الملائكة، وبذلك قفزوا على التاريخ الأدبي، حتى أنهم أخذوا من عنده مجموعة سنين كاملة، كأن تكون فاصلة بين هذا الجيل من الشعراء والجيل الآخر الأكثر شباباً... وما ذنب الجواهري إذا كان يترفع عن اللجوء إلى الإعلام عن ذاته وإثارة الضجيج حولها. ليتفضل أي واحد من النقاد أو الصحفيين، إذا أراد أن يقابل الجواهري وبشكل غير مصطنع. سيجد أن الجواهري يتضايق وأحياناً يدلي بالحديث أو بالتعليق الذي

لـه مـردود إعلامـي علـى شـعره. هـذا أيضاً عامـل مـن العوامـل الـذي سـاعد متـآمري الصمت على تآمرهم الصامت في تجاوز الجواهري في كثير من الأحيان[1]))

وفي نهاية هـذه الإضـاءة، نـسجل هـذه الـشهادة الرصينة الـتي وردت علـى لـسان الأديبـة المرموقـة الـدكتورة نجاح العطـار، الـتي عرفـت شـاعر العـرب محمـد مهـدي الجـواهري عـن كثـب، بخاصـة وأن هـذه الـشهادة تلخـص، بإيجـاز شـديد، حيـاة الجواهري، ونفسيته، وشعره، والبلاغة وروعتها بالإيجاز كما يقولون:

((هـذا هـو الجـواهري، عمـلاق الـشعر الكلاسـيكي العربـي، بـل آخـر الكلاسـيكيين العـرب، وأوفـرهم شـاعرية، ومعانـاة، وقـدرة علـى تطويـع العمـود الشعري، كي يحمل، ويحلق، مضامين العصر، في صياغة عربيـة آسـرة، تثبت أن الموهبة في النتيجة، هي التي تعطي الشعر أن يكون شعراً، مع المحافظة على الـوزن الذي هو أساسه.

لقد كرس حياته لقول الحقيقة، والدفاع عنها، والهتاف بها، رغم أنها كانت قمينـة، في كـل مـرة، أن تكلفـه غاليـاً، بـل أغلـى مـا لديـه، وهـو الـروح، وفي قولـه الحقيقة كـان جميلاً، والجميـل قولـة "بوالـو" في كتابـه "فـن الـشعر" هـو الحقيقـي، الحقيقي ولا شيء آخر. وإذا كان قد كرس شعره لتمجيد الـوطن الكـائن، فهـو، في رؤيته المستقبلية، قد مجد، ثلاثاً، الـوطن الـذي سيكون، ومـن هنـا اسـتحقاقه، وعظمته، وعطاؤه الكبير.

أيها الشاعر، يا شراعاً من دجلة، لتكن مباركة رحلتك الشعرية، فـامخر بنـا العباب، وتقبل منا باقة زهر، هي التحية لمرور مركبك في شواطئنا الجميلة)).

---

(١) مجلة الحوادث ١٢/١١/١٩٨١/ حوار أجراه الناقد جهاد فاضل.

محمد مهدي الجواهري في سطور...

ولد عام /١٩٠٠/ للميلاد، وهناك روايات أخرى، في النجف. والنجف مركز ديني وأدبي. وللشعر فيها أسواق تتمثل في مجالسها ومحافلها.

وقد تحدّر عن أسرة عريقة في العلم والأدب والشعر. اكتسبت شهرتها من باني مجدها العلمي الشيخ محمد حسن صاحب كتاب "جواهر الكلام". وكان لهذه الأسرة، كما لباقي الأسر الكبيرة في النجف مجلس عامر بالأدب والأدباء يرتاده كبار الشخصيات الأدبية والعلمية.

درس على عدد من الشيوخ وأخذ عنهم النحو والصرف والبلاغة والفقه وما إلى ذلك مما هو معروف في منهج الدراسة آنذاك.

لم يلتزم بالتدرج العلمي الذي جرى عليه طلبة العلم في النجف.

نظم الشعر في سن مبكرة بتأثير بيئته الخصبة بفنون الأدب وألوان المعارف، واستجابة لموهبة كامنة فيه.

لم يبق من شعره الأول شيء يذكر، وأول قصيدة له كانت قد نشرت في شهر كانون الثاني عام /١٩٢١/، وأخذ يوالي النشر بعدها في مختلف الجرائد والمجلات العراقية والعربية.

تبوأ مكاناً مرموقاً بين شيوخ القريض في بلدته.

نشر أول مجموعة باسم "حلبة الأدب" عارض فيها عدداً من الشعراء المعاصرين والقدامى.

سافر إلى إيران مرتين. المرة الأولى في عام /١٩٢٤/، والثانية في عام /١٩٢٦/، وكان قد أخذ بطبيعتها، فنظم في ذلك عدة مقطوعات.

ترك النجف عام /١٩٢٧/ ليعين مدرساً في المدارس الثانوية، ولكنه فوجئ بتعيينه معلماً على الملاك الابتدائي في الكاظمية.

وفي العام نفسه أصدر ساطع الحصري مدير المعارف آنذاك أمراً بإنهاء خدمة الجواهري من سلك التعليم، بسبب نشره قصيدة "بريد الغربة" التي استوحاها من طبيعة إيران في أثناء سفرته الثانية إليها، وقد اتخذ بيتاً ورد فيها ذريعة للإيقاع به.

أحدث هذا الأمر ضجة، فتدخل وزير المعارف آنذاك "السيد عبد المهدي" وألغى قرار الفصل، ولكن الجواهري استقال من وظيفته بعد أقل من شهر. ولما اتسعت الضجة رأى البلاط أن يضع لها حداً، فعينه بدائرة التشريفات.

في عام /١٩٢٤/ أعد للنشر مجموعة من شعره باسم "خواطر الشعر في الحب والوطن والربيع"، ثم أضاف إليها ما استجد له من شعر وبدأ طبعها سنة /١٩٢٧/ بعنوان "ديوان محمد مهدي الجواهري" وعندما أنجز الطبع سنة /١٩٢٨/ صدر بغلاف عليه اسم "ديوان بين الشعور والعاطفة" لصاحبه محمد مهدي الجواهري.

ثم استقال من البلاط سنة /١٩٣٠/، ليصدر جريدته "الفرات" وقد صدر منها عشرون عدداً، ثم ألغت الحكومة امتيازها فآلمه ذلك كثيراً، وحاول أن يعيد إصدارها ولكن دون جدوى، فبقي دون عمل إلى أن عين معلماً في أواخر سنة /١٩٣١/ في مدرسة المأمونية، ثم نقل إلى ديوان الوزارة رئيساً لديوان التحرير.

في هذه الأثناء زار العراق الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود، فنظم قصيدة يمدح فيها آل سعود لمحض التشفي بالملك فيصل، وأوصلها إلى الأمير السعودي، وطلب إليه نشرها في الجريدة السعودية "أم القرى"، ونشرت القصيدة، فأثار ذلك الملك فيصل، وكان الشاعر حينئذ مدرساً في ثانوية البصرة، ثم لم يمض فيها بضعة أشهر ونقل إلى الحلة، ثم أعيد إلى ثانوية البصرة مرة أخرى، ثم نقل إلى ثانوية النجف، ثم إلى دار المعلمين الريفية في الرسّمية، وهنا نشر قصيدة عنوانها "حالنا اليوم أو في سبيل الحكم" فضح فيها نظام الحكم القائم، وأبان عن مفاسده فأحيل على لجنة "الانضباط" العام فأبدل المجلس الإنذار بعقوبة الفصل، ولم يرغب في العودة إلى الوظيفة، إلاّ أن بعض المسؤولين في الوزارة أقنعوه بالعودة فاختار الناصرية، ولكنه استقال من الوظيفة بعد أشهر ليفرغ للصحافة.

وفي عام /١٩٣٥/ أصدر ديوانه الثاني باسم "ديوان الجواهري".

وفي أواخر عام /١٩٣٦/ أصدر جريدة "الانقلاب" إثر الانقلاب العسكري الذي قاده بكر صدقي.

وإذ أحس بانحراف الانقلاب عن أهدافه التي أعلن عنها بدأ يعارض سياسة الحكم فيما ينشر في الجريدة، فأخذت الحكومة تتحين الفرص للإيقاع به، وتم لها ذلك، وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر وبإيقاف الجريدة عن الصدور شهراً.

بعد سقوط حكومة الانقلاب غير اسم الجريدة إلى "الرأي العام" ولم يتح لها مواصلة الصدور، فعطلت أكثر من مرة بسبب ما كان يكتب فيها من مقالات ناقدة للسياسات المتعاقبة، وكان يصدر في أثناء تعطيل "الرأي العام" جرائد أخرى بأسماء أخرى، باسمه أو باسم آخرين "كالثبات" و"الجهاد" و"الأوقات البغدادية" و"الجديد" و"الدستور و"صدى الدستور" و"العصور".

ولما قامت حركة مايس سنة /١٩٤١/ أيدها وبعد فشلها غادر العراق مع من غادر إلى إيران.

عاد إلى العراق في العام نفسه، واستأنف جريدته "الرأي العام".

في عام /١٩٤٤/ شارك في مهرجان أبي العلاء المعري في دمشق وألقى قصيدته:

قف بالمعرة وامسح خدها التربا

واستوح من طوق الدنيا بما وهبا

وفي عام /١٩٤٧/ دخل المجلس النيابي نائباً عن كربلاء، واستقال من المجلس مع من استقال من نوّاب المعارضة احتجاجاً على السياسة الاستعمارية التعسفية التي أرادت فرض معاهدة بورتسموث على الشعب فكانت وثبة كانون عام /١٩٤٨/، وأريد منه أن يعود إلى المجلس النيابي في جملة من عاد إليه من المستقيلين فامتنع. وفي وثبة كانون استشهد شقيقه الأصغر جعفر:

أتعلمُ أم أنتَ لا تعلَمُ ... بأن جراحَ الضحايا فمُ

وفي أيلول من العام نفسه سافر إلى باريس ومنها إلى "بركلاو" في بولونيا لحضور أول مؤتمر للسلام العالمي، وكان العربي الوحيد الممثل في هذا المؤتمر، بعد أن تغيب عن حضوره الدكتور طه حسين. وبعد انتهاء المؤتمر عاد إلى باريس وأقام فيها عدة أشهر، ثم رجع إلى العراق.

أصدر في عامي /١٩٤٩/ و/١٩٥٠/ الجزء الأول والثاني من ديوانه في طبعة جديدة. وقد ضم هذا الديوان فيما ضم قصائده التي نظمها في الأربعينيات والتي برز فيها شاعراً كبيراً، ومن بينها: قصيدة "ستالينغراد" و"المقصورة" و"المعري" و"أبو التمن" و"الوتري" و"سواستبول" و"أحب أيها القلب" و"أخي جعفر" و"يوم الشهيد".

وفي عام /١٩٥٠/ دعاه الدكتور طه حسين للمشاركة في المؤتمر الثقافي لجامعة الدول العربية الذي عقد في الإسكندرية، وعندما وصل إلى مصر أعلن الدكتور طه حسين أن الجواهري ضيف الحكومة المصرية، وفي هذا المؤتمر ألقى قصيدته:

يـــا مـــصر تـــستبق الـــدهور وتعثـــر

والنيـــل يزخـــر والمـــسلة تزهـــر

وقد عرّض فيها بالحكم الرجعي القائم في العراق آنذاك.

ثم عاد إلى العراق لتدعوه في عام /١٩٥١/ لجنة تأبين عبد الحميد كرامي إلى بيروت للمشاركة في تأبينه، وألقى قصيدته الشهيرة:

بـــاقٍ ـــ وأعمـــار الطغـــاة قـــصار ـــ

مـــن ســـفر مجـــدك عـــاطر مـــوار

وعلى أثرها تلقى أمراً عاجلاً بوجوب مغادرته لبنان، حيث ظل ممنوعاً من دخولها لسنوات عديدة.

وفي العام نفسه، وبعد عودته من بيروت عطلت الجرائد التي كان يصدرها فسافر إلى مصر احتجاجاً على مضايقته.

وعـاد إلى العـراق بعـد أن حـضر مـؤتمر الـسلام العـالمي الـذي عقـد في فيينـا ، وأصـدر "الأوقـات البغداديـة" و"الثبـات" و"الجهـاد"، ثـم أغلقـت "الجهـاد" إثـر انتفاضـة تشرين /١٩٥٢/ ، واعتقل في سجن أبي غريب ونظم في المعتقل قصيدة "ظلام".

أصدر عام /١٩٥٣/ الجزء الثالث من الطبعة الثالثة من ديوانه. وأصدر جريدة "الرأي العام" إلاّ أنها عطلت عام /١٩٥٤/ لمناهضة الحكم الرجعي فيها.

أرادت الحكومة أن تسكته فأقطعته أرضاً في منطقة "علي الغربي" من لواء العمارة آنذاك، ولكنه سرعان ما تمرد، وقد دعته لجنة تأبين الشهيد العقيد عدنان المالكي إلى دمشق للمشاركة في تأبينه، فلما وصل إليها ألقى قصيدته المدوية:

خلّفـــت غاشـــية الخنـــوع ورائـــي

وأتيـــت أقـــبس جمـــرة الـــشهداء

التي فضح فيها الحكم الرجعي في العراق. وأقام في دمشق بعد أن منحته الحكومة السورية حق اللجوء السياسي، وظل فيها قرابة سنتين ضيفاً على الجيش العربي السوري. وفي دمشق أصدر الجزء الأول من ديوانه في طبعته الرابعة ولم يصدر أجزاء أخرى منه، ثم عاد إلى بغداد عام /١٩٥٧/.

أقام بعد عودته من دمشق في "علي الغربي" حتى إذا قامت ثورة الرابع عشر من تموز عام /١٩٥٨/ عاد إلى بغداد، وحيّا الثورة بقصيدته:

ســدد خطــاي لكــي أقــول فأحــسنا

فلقــد أتيــت بمــا يجــل عــن الثنــا

ثم استأنف إصدار "الرأي العام" ووقفها على تأييد الثورة ومنجزاتها.

انتخب رئيساً لاتحاد الأدباء العراقيين ونقيباً للصحفيين.

وعندما عقد المؤتمر الرابع للأدباء العرب في الكويت في كانون الأول من عام /١٩٥٨/ حضره رئيساً لوفد اتحاد الأدباء العراقيين... وقد واجه الوفد استفزازات شرسة ولكنه بذل جهداً في تجنب الوقوع فيها.

ولم يمض على الثورة عام حتى أخذ يواجه مضايقات مختلفة بلغت حداً أدى إلى الاعتداء عليه وتوقيفه، فخشي على حياته، فانتهز دعوته إلى حضور حفل تكريم الأخطل الصغير في بيروت عام /١٩٦١/ لمغادرة العراق، وقد غادره فعلاً، ومن هناك استقر في براغ ضيفاً على اتحاد الأدباء التشيكوسلوفاكيين.

وإذا اشتدت الضائقة بالشاعر، قبل مغادرته العراق، رأى جماعة من الأصدقاء والمحبين أن يسعوا للتخفيف عنه ففكروا في طبع ديوانه كاملاً في أربعة أجزاء، وبدأ المشروع فعلاً وصدر منه جزءان، صدر الجزء الأول عام /١٩٦٠/، والجزء الثاني عام /١٩٦١/.

أقام في براغ سبع سنوات، وصدر له فيها عام /١٩٦٥/ ديوان جديد سماه "بريد الغربة".

وفي أواخر عام /١٩٦٧/ جاء إلى بيروت ليطبع ديوانه كاملاً، فاتفق مع دار الطليعة على إصداره، فصدر الجزء الأول منه في نيسان من عام /١٩٦٨/.

وبعد ثورة السابع عشر من تموز، وفي أواخر عام /١٩٦٨/ عاد إلى الوطن بدعوة من حكومة الثورة. وقد استقبل استقبالاً حافلاً، وأقامت له وزارة الإعلام حفلاً لتكريمه، ألقيت فيه القصائد والكلمات، وألقى هو فيه قصيدته:

أرح ركابك من أين ومن عثر

كفاك جيلان محمولاً على سفر

خصصت له حكومة الثورة العراقية راتباً تقاعدياً شخصياً قدره /١٥٠/ ديناراً في الشهر، حسب القوة الشرائية لعملة أيام زمان.

وفي عام /١٩٦٩/ صدر الجزء الثاني من ديوانه، وفي العام نفسه صدر له في بغداد ديوان "بريد العودة".

وفي عام /١٩٧١/ أصدرت له وزارة الإعلام ديوان "أيها الأرق".

وفي عام /١٩٧١/ كان رئيساً للوفد العراقي الذي مثل العراق في مؤتمر الأدباء العرب الثامن المنعقد في دمشق. وفي العام نفسه أصدرت له وزارة الإعلام ديوان "خلجات".

وفي عام /١٩٧٣/ رأس الوفد العراقي إلى مؤتمر الأدباء العرب الثامن الذي عقد في تونس.

وإذا ذكر الجواهري في الجرائد والمجلات والكتب، وقدّم في المنتديات والمحافل، ذكر بالإعجاب والإكبار، وكثيراً ما لقب بالشاعر الكبير وشاعر العرب الأكبر.

أمضى سنواته الأخيرة في دمشق، ضيفاً على القائد الخالد حافظ الأسد. وفي العاصمة السورية صدرت أعماله الكاملة في مجلدات، ضمن منشورات وزارة الثقافة السورية. كما أنجز بدمشق تحرير وطباعة مذكراته وسيرته الذاتية في مجلدين.

توفى الشاعر بدمشق في السابع والعشرين من تموز عام /١٩٩٧/، ودفن تنفيذاً لوصيته في مقبرة السيدة زينب، رضي الله عنها.

محمد مهدي الجواهري

شهادات أدبية . . . وآراء ذوقية

بأقلام:

- هاشم الطعان
- بلند الحيدري
- عبد الرحمن منيف

الجواهري والتراث

ملاحظات إنطباعية

بقلم: هاشم الطعان

ـ ستسهم معنا بأن تكتب عن الجواهري والتراث.

ووافقت دون تردد.. ونسيت كل ما غرسه الدكتور علي جواد الطاهر في نفسي.. من أن الجواهري أكبر من أن يدرس...

حسناً.. ليكن ذاك.. ولكنني لا أدرس الجواهري.. كله.. إنما هي مسألة سهلة المأخذ يسير التحدث فيها، حتى أني لأفكر أن آخذ قلمي فأبدأ ولن أضعه حتى أنتهي.. الجواهري تراث من أي النواحي أتيته.. ومن ذا الذي يفكر بالتحدث عن الجواهري بمعزل عن التراث..؟ وأكاد أقول من ذا الذي يفكر بالتحدث عن التراث بمعزل عن الجواهري؟..

ومع ذلك.. فأنا أتردد.. أتهيب.. أأكون قد تعجلت في استجابتي.. ويبدو أن هادياً قد أدرك ثقل ما كلفني وكلف به غيري.. فإذا هو سهل يتبرع بتأجيل موعد تسليم البحوث المرة تلو الأخرى دون أن يعاتب.. أو يلحّ..

ولم أعدم حجة أقطع بها صاحبي..

ـ أتذكر قصيدة الجواهري في المستنصرية؟

ـ أذكرها..

ـ تذكر قوله..

وخاطوا عليك الجفن خوفاً من الأذى

إليك على أهدابهم يتسرب

ـ أجب..

ـ إن له أصلاً تراثياً في كتاب الأغاني.. لقد قرأت الأصل في الأغاني أنا متأكد من ذلك.. كان هذا قبل بضع سنوات.. وعليّ أن أعيد قراءة مجلدات كتاب الأغاني لأجده.. أتظن الأمر سهلاً إلى هذا الحد..

ولكن أيمكن أن تناقش علاقة الجواهري بالتراث على أساس مفهوم السرقة الشعرية التقليدي..

ورفضت المسألة.. وأرفضها بالنسبة لكل شاعر أصيل..

وكدت إثر ذلك أن أدخل في مسالك اللفظ والمعنى الوعرة.. وكدت.. وكدتُ..

«٢»

أسلفت أن علاقة الجواهري بالتراث مسألة مفروغ منها.. وهو نفسه قد طرح المسألة ووضع أيدينا على حلها:

((احفظوا أيها الشباب في اتحاد الأدباء شعراً كثيراً كثيراً، كثيراً وأدباً مضاعف الكثرات كذلك قبل أن تقولوا شعراً كثيراً أو قليلاً..إنكم إذ تحفظون فلا بد لكم أن تفهموا ما تحفظون ثم لا بد لكم شئتم أم أبيتم أن تهضموا ما فهمتم ثم لا بد لكم مع ذلك أن تنفتح أمامكم آفاق الحياة فيما تهضمون، لا بد لكم أن تبدلوا كثيراً من مفاهيم الأمور والأشياء والأشخاص والجماعات على ضوء من هذا الهضم الواسع العميق....))[١]

---

(١) مجلة الأديب العراقي. العدد الأول ١٩٦١ من مقالة للجواهري بعنوان (المفردة حياة حافلة وليست حروفاً).

أرأيت إذن كيف يشخص الجواهري العلاقة الصحيحة المثمرة بالتراث..أرأيت كيف يستحيل التراث عند الجواهري وكيف يريده أن يستحيل عند غيره من الأدباء إلى نسغ صاعد.. كما يفعل النبات بغذائه.. الذي كان شيئاً آخر.. شيئاً له تاريخ.. أخذ منه ما أخذ وطرح منه ما طرح.. و(هضم).. هنا النقطة.. هضم ما أخذه فإذا هو مزهر.. ومثمر.. وإذ بالثمر المتوهج رواء يستوقفنا فما نفكر فيما كان.. ولا نعرف ما كان إلا أن علماء النبات يعرفون جيداً ما كان.. يعرفون أصل كل جزيئة.. ولكنهم لا يستطيعون في (مختبراتهم).. لا يستطيعون ولا تستطيع مختبراتهم معهم ما تستطيعه شجيرة نارنج في ركن حديقة بيت فلسطيني أو ما تستطيعه نخلة تلهث في واحة من واحات هجر.

هذا هو الشعر.. الشعر.. وهذا هو الجواهري.. تستطيع أن ترجعه إلى عناصره الأولية.. لكنك لا تستطيع أن تصوغ ما يصوغه من هذه العناصر..

وقد بدأ الجواهري من حيث يجب أن يبدأ.. واقرأ معارضاته الأولى للشعراء في (حلبة الأدب) تجده (يبشر) كما (تبشر) شجرة الرمان بزهرة أو اثنتين.. وانتظر موسمها القادم واستعمل محسبة الكترونية لتحصي الزهر..

وهنا نضع أيدينا على بديهية.. تحاول أن تكون غير بديهية ، فما هو التراث عند الجواهري.. وعندنا..؟

إن عبق التاريخ الذي يفوح من هذه الكلمة وما تجر وراءها من اشتقاقات وما ترجع إليه من جذور لا يجعل الجواهري يخرج على المقصد الأجود.. فكل حسنٍ في الفكر تراث وإن كان معاصراً. والجواهري على هذا تراث.. لذا نجد الجواهري (يعارض) شوقي و(الشبيبي) إلى جانب معارضته للتهامي وابن زيدون.. وقد وضعت كلمة يعارض بين قوسين لأني أعني بها ما لا يعنيه اصطلاح المصطلحين في هذا الفن..

ويبدو أن لا بد من نقل كلام ابن قتيبة حول هذا الموضوع ، قال:(... فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه (رأى) قائله.

ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن من دون زمن، ولا خص به قوماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره، وكل شرف خارجية[1] في أوله.

فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين، وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول: لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته.

ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم....)[2]

«٣»

قلت إن الجواهري بدأ بمعارضات، كانت (تمارين).. لترسيخ قدمه.. ولم يطرح الجواهري أسلوب المعارضة بعد نصف قرن من ممارسة الشعر وبعد أن أصبح شاعر العرب.. على أن المعارضة عند الجواهري شيء يختلف عما يوجبه هذا المصطلح فهو يختار.. ربما بلا وعي قصيدة يحس أن وزنها وقافيتها ينهضان بما يريد أن يقوله.. ويا رحمتا بعد ذلك لهما.. فقد حملا ما لم يحمله الإنسان الظلوم.. ونهضا بما لم تنهض به العصبة.. ولن يذكر أحد أن الوزن والقافية ينهضان بقصيدة أخرى.. إلا (المختبريون) أجل.. إن الأوزان معدودة.. والقوافي محصاة.. ولا بد لشاعر جاء بعد ملايين الشعراء أن ينظم في واحد أو أكثر من البحور الستة عشر.. وأن يختار حرفاً من الحروف الثمانية والعشرين قافية... ولا بد بعد هذا وذاك من أن يلتقي هذا البحر هذه القافية وحركتها عند الجواهري كما التقيا عند ابن زيدون أو عند التهامي.. أو المتنبي.. ويخذلك (علم الاحتمالات الرياضي) حين تتحدث عن المعارضة.. ويخذلك

---

(١) الخارجي الذي يشرف بنفسه كالعصامي

(٢) الشعر و الشعراء ـ ط بيروت ـ ص١٠.

الجواهري نفسه حين يقول الشعر.. وتضطر إلى التساؤل ما (نونية ابن زيدون) إلى (أم عوف)..

مع كل ذلك.. فالجواهري وارث... وهو تراثي جيد وهو يختار.. قلت ربما بلا وعي القوالب التراثية لمعلقاته..وقد لقيت العشرات يتذكرون (ويل لبغداد) الرصافي حين يقرأون (دجلة الخير) الجواهرية. وبعد ، فنحن نسأل.. أهذا كل ما حمله نسغ الجواهري الصاعد إلى قصائده من التراث..؟..

كلا وإني لاستعملها زاجراً.. كلا.. وإلا فإن النسغ لم يحمل (شيئاً)..

فما هي روافد الجواهري..؟

بل ما هي منابعه؟...

«ج»

نستطيع أن نجمل موجِزين فنقول إن كل الفكر العربي، وشيئاً لا يستهان به من الفكر العالمي هو (تراث) الجواهري..

ولن نحتاج إلى الدليل.. ولن نجد شخصاً يعتد به يتحدى هذا القول. فأنى التفت في شعر الجواهري وجدت أثر القرآن الكريم والمعلقات وجرير والمعري والمتنبي وابن زيدون.. والبحتري.. و و..

ولقد كنا نروي، ولا أدري قيمة هذه الرواية في علم الجرح والتعديل.. إن الجواهري كان يحفظ ديوان المتنبي وهو صبي يلعب في الأزقة..

ويوماً كان ينشد من مقصورته .. فلما وصل إلى قسمه بالمتنبي.. قطع إنشاده وعلق (المتنبي العظيم) .. وقال لي جاري ونحن نصغي.

ـ لا تصدقه .. إنه بالبحتري أشد إعجاباً ..

وأرسل في مهاجره الأخير يطلب ديوان البحتري وكتاب الأغاني سميري غربة...

ويقال ـ وفي القول كثير من الصواب ـ إن نسجه بحتري ..

ولكننا نظلم الرجل إن قصرنا تأثره على المتنبي أو البحتري أو على أي شاعر آخر.. أو على أية فئة من الشعراء .. أو طبقة منهم .. الجواهري وارث كل ما يخطر بالبال .. ومجسد لخير ما في تراثنا الأدبي..

«٥»

وكنا نلتقي في ركن مقهى لنقرأ قصيدة جديدة للجواهري أو نجتمع في بيت صديق لنذكر قصائد الجواهري القديمة (الجديدة) أو نتصادف على قارعة الطريق لنقول كلمة في الجواهري..

كنا ـ وللشباب عذره ـ نتسقط أغلاط الجواهري في اللغة والنحو ... ثم مشى بنا الزمن فإذا بنا نجد أغلاطنا في تغليطه ..

وكنا نأخذ عليه إغرابه .. واختياره للأوابد وحوشي الكلام ... ثم صرنا إلى حيث نعتقد أن الجواهري بث حياة في هذا كله .. فما هو حوشي ولا هي أوابد ..

وعدنا إلى أضعف الإيمان .. فإذا كل قصيدة جديدة للجواهري نجدها دون سابقاتها .. ثم نديرها على ألسنتنا .. ونرددها .. ونناقشها .. ونتمثل بها .. فإذا هي من (سابقاتها) اللواتي ستكون الجديدة (أضعف منهن !!)..

لقد قيل الكثير عن الجواهري.. وسيقال الكثير.. وسيبقى الجواهري (جواهرياً).

الجواهري وصور من الأمس

بلند الحيدري

ما عنّ لذاكرتي قول أبي الطيب المتنبي في وصف إبائه وشموخ طموحه، على ندرة ما يستحوجنا الواقع اليوم إلى مثل هذه النماذج، بعد أن شاهت النفوس وصغرت مطامحها واستكانت إلى الذلة لتصخب دفوف أعشى ميمون وراء كسب رخيص بمدح هذا أو ذم ذاك.. ما عنّ لي أن أتذكر قوله:

أعطى الزمان فما قبلت عطاءه　　　وأراد لي فأردت أن أتخيرا

إلا وتذكرت صنوه في الشعر والإباء، "أبا فرات"، محمد مهدي الجواهري وهو في التسعين من عمره، أطال له طيلته - يعاني من ألم الغربة ما يعاني، بعد أن أبعدته كبرياؤه عن أهليه ومحبيه وأبناء وطنه، وذلك على الرغم مما كان يمكن أن يكون له من متاع الدنيا من قصور وسيارات وضياع وخدم وحشم، غير أن الجواهري لم يكن لأحد كما كان لنفسه، وأمانته لقيمه، فإن مدح بظنة حسنة، وإن أخلص لمن أصفاه الود فاصطفاه، كان لهما الكثير منه، وإن نكثا بوعودهما الخير كان الثائر عليهما من دون هوادة. وإذا كان للظروف أن هادنته فهادنها، وسايرته فسايرها فلفترة وجيزة، عاد بعدها، وكما كان دائماً، يرفع إصبع إدانته ضد ظالمي شعبه ويحث الناس على قتالهم.

أنا حتفكم ألج البيوت عليكم　　　أغري الوليد بشتمكم والحاجبا

فلا يسلم من مطاردتهم إياه من سجن إلى سجن ومن توقيف إلى توقيف ومن منفى إلى منفى، فقد كتب عليه أن يكون "أكثر من أي شاعر عشته وعاشني، انشداداً بالجماهير العربية" التي أبت عليه أخلاقه أن يخونها، معترفاً في الآن ذاته،

بخطأ في التقدير جره في بعض الأحيان إلى أن يظن الشحم فيمن شحمه ورم. "أقول هذا ولست ناسياً أو متناسياً حصتي أنا بالذات من هذا كله، كفرد من الأفراد أو واحد من الجماعات الذين يبتغون أن يزيحوا عن أنفسهم وذواتهم بحد ذاتها، غشاوة ما عاشوه وكابدوه، وما اختلطت به عليهم سبل الحياة ومفارق طرقها فيما بين تلك المعايشة والمكابدة، مما لا بد له، بحكم الطبيعة والمنطق، من أن ينطوي على الشيء وضده، أفراحاً وأتراحاً، مسرات وأحزاناً، صعوداً ونزولاً، انتصارات وهزائم، جموحاً وكبوات، عداوات وصداقات".

وهو اعتراف لا يريد منه تبرئة ذمته مما يمكن أن يكون قد اختلف إليه شيء مما اختلف لأي إنسان آخر في حلكة تاريخ العراق المعاصر والملأى بالتكتلات الحزبية والطائفية وأجواء العمالة، وكل شعار ارتفع هنا أو هناك لم يكن غيروهم وسحاب خلبٍ، وقد تمرّس الجواهري بها كلها. وانخدع ببعضها كما انخدع آخرون، ولكنه بقي دائماً على مثل ما كان، في صدقه واعترافه بأخطائه وفضح الحقائق التي تسترت عليها تلك الشعارات البراقة، فها هم هؤلاء الذين صفق لهم عالياً على أمل أن يكون الخير من أيديهم لشعب العراق، قد انقلبوا على أعقابهم، وأصبحوا الطغاة المتجبرين على شعوبهم، ووظفوا سلطتهم ضد كل ما تنادوا إليه بالأمس. وليس له إلا أن يعود لقلبه وضميره وشعبه، ليشن حربه ضدهم ويعلن غضبه عليهم، وليكن بعد ذلك ما يصير من بعض قدره في الغربة أو في السجن أو في الفقر.

وفي الجزء الأول من كتابه "ذكرياتي" فصول رائعة تلقي الكثير من الضوء على الكثير مما لقيه، ومما لم يلق مثله لا الرصافي، على علو همته، ولا الزهاوي ولا أي شاعر غيرهما من شعراء العراق الكبار، الذين أدلوا بدلائهم في قضاياه الاجتماعية والسياسية. فليس لأي صوت من أصواتهم ما ماثل صوت الجواهري في تمايزه عنهم جميعاً.

وأركـــب الهـــول في ريعـــان مأمنـــه

حـــب الحيـــاة بحـــب المـــوت يغـــريني

فالجواهري، كما أورد في كل صفحات ذكرياته، وكما عرفه كل عراقي وكما صادف أن تحدث إلينا عن أيام سود وأيام بيض، وأيام اختلطت ألوانها. فيتيامن حيناً ويتياسر حيناً وظل في جانبيه، ورغم عتمة الأولى وصباحات الأخرى، وضياع الثالثة فيما بينهما لا يدور بخلده "ولا بحسابي ولا بتخطيط متعمد أن يكون ما اخترته من أن أكون للناس ومع الناس بديلاً عن فوات كل الطموحات الأخرى، لقد كان محض مزاج ليس إلا..."، بل أكثر من مزاج، إنه الإنسان الكبير الذي يرفض أن يتواطأ مع نفسه ومع الآخرين للنيل من شعبه، فما قيمة أن يأتوا به نائباً في مجلس النواب وهو لا يسأل، وقبل أن يسألوه عمن سيمثل من الناس، هؤلاء الذين أحبهم وأحبوه، أو دم أخيه جعفر الشهيد، أو جوع أهل بلده "... وأي نائب؟.. بالطبع هو أمر لطيف أن يكون الإنسان واقعياً، أن يصبح وزيراً، حاكماً، نائباً، عيناً، فضلاً عن أن يكون رئيساً لمجلس الوزراء وذلك بشيء من النفاق وببعض من التحايل وقليل من الذكاء والفطنة. ثمة شهود عدول على ما فوته على نفسي ولم يفوته الآخرون من أترابي".

وكانت كل تلك على مد ذراع منه، لو أرادها أو طمح فيها، وحسب الرجل فخراً ما فوته على نفسه. وحسبنا منه أننا نتذكره في كل ذلك، وفي منفاه وهو يمد بقامته المرهفة عالياً. حسبنا أن نتذكره اليوم في غربته القاسية، لنتمنى أن يكون لنا شيء منه، ولو كان شيئاً صغيراً من همته وصبره الرائع على تعسف المتعسفين وكيد الظالمين وسوء دورة الأيام في هذا الزمن السيء.

وإذا كانت جماهير الأمة العربية، التي أدركته في كونه أكبر شعرائنا المعاصرين إطلاقاً، وأكثرهم تمثيلاً لهم في تطلعاتهم وآلامهم وخيباتهم وانتصاراتهم، فإن ثمة نفراً، لهذا السبب أو ذاك، أو بأثر من انتماءات مشبوهة، أو لتملق لأصحاب السلطة، لا يزالون يحاولون النيل منه، باستعادة صور باهتة عنه، وأن يجعلوا منها محاور رئيسة للتحدث بها عن هذا الرجل الفذ، وقد كان الرجل هو أنه تحدث عنها قبل أن يتحدثوا عنها. وإن طوال معاناته وطوال غربته وطوال سنوات لجوئه في هذا البلد أو ذاك هي في النهاية الشاهد له، وإن غشاوة وقعت لعينه للحظة من الزمن، ما

كانت لتكون لولا رحابة صدره لأن يغفر لهذا الإنسان أو ذاك، وبما يريد به لهما أن يبدأ دوراً جديداً في الحياة، ومن خلال إيمانهما بشعبهما.

وإذا كانت العبرة بالخواتم، كما يقال، فأية خواتم كانت للجواهري غير أيامه الملأى بكل ما يعمق وعيه بأن تعاسته هي الدليل الناصع على ما يكن لوطنه، وأنه إذ يرحل من أرض إلى أرض، سيظل يحمل معه حنينه الدائم إلى إخوته وأصدقائه وإلى من أحبهم وأحبوه.. وإلى أن نسأل من عاداه عما له ضده..

بمـــــاذا يعيرنـــــي الأرذلـــــون   ومـــا تخـــاف صـــلال الفـــلا

وأن يتمنى لأعدائه ما كان له من عذاب دنياه:

صـــاحبي لـــو تكـــون مـــن أعـــدائي

لتمنيـــــــت أن تمـــــــوت بـــــــدائي

لتمنيـــت أن يكـــون لـــك الطـــو ـــ

لان، طـــول الأذى وطـــول البقـــاء

كان المنتصف الثاني من أربعينيات هذا القرن، حلبة صراع كبير، ما ملأها إنسان كما ملأها الجواهري، فظلا الرصافي والزهاوي قد انحسرا، وظروف العراق اليوم هي غير ظروف أمسه، وليس لشاعر أن يقف أمام أحداثه إلا الجواهري، الذي شغل الحديث عنه جميع الناس، فمن أدركه في شعره عرف أي بون بين شاعريته وشاعرية كل من سبقوه، ومن كان ينتظر مقالاته في صحيفته اليومية كان ينتظر منه أن يدله إلى ما يجب عليه أن يعمل. وكانت السلطة، كل السلطات، تنظر إليه بحذر وتهدده وتتوعده وتغريه بمناصب يسيل لها اللعاب إلا لعاب الجواهري. وكنا، نحن الذين كنا نحاول أن نتلمس أنفسنا في تجربة جديدة للحداثة الشعرية، لا ننفك عن مسعانا لأن نكون على مقربة منه ومن عطفه علينا، كنا نحاذيه في مجلسه في هذا المقهى أو ذاك. ولشد ما كنا نكبر أنفسنا عندما

كنا نراه يبتسم لنا بكثير من الطيبة. ولقد تجرأت ذات مساء واخترقت مجلسه العامر بالأدباء والسياسيين من أهل جيله، لأقدم له ديواني الأول "خفقة الطين" الذي كان قد صدر حديثاً في عام ١٩٤٦، وبعد أن ملأت صفحته الأولى بكل كلمات الإعجاب والإطراء، وقف الرجل وتسلمه مني وهو يكرر: "شكراً.. شكراً" ثم جلس وقلب عدداً من صفحاته ووضعه بعد ذلك إلى جانبه.

ولكم كان شعوري بالخيبة كبيراً، أن يعيد لي ديواني في اليوم الثاني أحد العاملين في المقهى. فقد نسيه الجواهري.. من يدري ربما تناساه عمداً.

وفي المساء ذاته يجيء الجواهري إلى المقهى ليتخذ فيه ركنه المفضل مع شلته، فاندفع إليه، وما كاد يراني حتى ابتسم لي ابتسامته الدافئة وهو يقول: "عندك شعر حلو".. وبشيء من الفظاظة غير المعهودة فيّ قلت له: "لكنك تركت الديوان هنا فمتى قرأته..؟!" صمت قليلاً ثم أردف قائلاً.. "اليوم صباحاً قرأته.. وفيه أشياء أعجبتني.. عجيب"، وتذكرت أنني كنت قد بعثت بنسخة باسمه قبل أيام إلى عنوان الجريدة.

كنا نكتفي بلقائنا به بمجاورة مجلسه لنسمع ما يتحدث به أو وهو يتمتم بأبيات من قصيدة جديدة، أو وهو ينثر غضبه يميناً وشمالاً على بعض مناوئيه. وكان أحياناً يقف معنا للحظة وهو يسدي إلينا النصح في جملة قصيرة ككل جملة فيعلق واحد ممن كانوا معه ساخراً "إنه يأخذكم على مستوى عقلكم".

ورغم ما كنا نريده لشعرنا الجديد من الخروج على ربقة شعرنا القديم، فقد ظل الجواهري شاعرنا الكبير المتميز برهافة شاعريته، وقربه من إشكالات مجتمعه وأمته، وحسن بناء قصيدته ومتانتها، وروائع صوره الشعرية ذات الأبعاد المتعددة في الواقع والرمز. فقصائده تبقى قريبة المنال بهمومها ومضامينها، وبعيدة المنال برموزها في الآن ذاته، وكانت حماسة بدر شاكر السياب له لا تماثلها حماسة أي واحد منا "فلا متنبي بعد المتنبي إلا الجواهري".

وصار لي أن التقيه ما بين يوم وآخر في "اتحاد الأدباء العراقيين"، في أوائل الستينيات ليحدثنا طويلاً عن ذكرياته، أو يروي طرائف مما وقع له مع هذه الشخصية أو تلك. وأحياناً كنا نتركه لوحده عندما نرى شفتيه تتمتمان بما يخيل

لنـا بأنـه في سـبيل كتابـة قـصيدة جديـدة.. وأحيانـاً ومـن دون سـبب واضـح، يـدخل الاتحاد وفي عينيه نية مبيتة على إثارة مشكلة نختلف فيها ليكون لنا بعد ذلك أن نصمت أمام غضبه المنفجر، وأذكر مرة أنني كنت في جلسة مع المرحوم الشاعر محمود الحبوبي والأستاذ العلامة مهدي المخزومي، وكان الحبوبي مستأنساً بقراءة أبيات من قصيدة "بشر بن عوانة" وهو يهتز طرباً مع كل بيت يردده:

إذن لرأيـــت ليثـــاً أم ليثـــاً … هزيـــراً أغلبـــا لاقـــى هزيـــراً

تبهـنس إذ تقـاعس عنـه مهـري … محـــاذرة فقلـــت: عقـــرت مهـــراً

أنـــل قـــدمي ظهـــر الأرض إنـــي … رأيـت الأرض أثبـت منـك ظهـرا

وفجـأة يـصرخ الجـواهري بـه: "..إنـه أسـد ولـيس قطـة.. كفـى كـذباً وترديـداً للكذب.. هذا الكذب هو الذي أوصلنا لهذا الخضيض الذي نحن فيه".

ونحاول أن نخفف من غضبه دون جدوى، فلا بد لغضبه أن يأخذ مداه، ومثل هذا الغضب كثيراً ما كنا نفاجأ به في جلسات الهيئة الإدارية في "اتحاد الأدباء"، والذي كان هو رئيسها، فيسد علينا باب الحوار فنضطر إلى إرجاء البحث في موضوع الجدل إلى اجتماع آخر حيث يمر الإقرار بالإجماع ودون أية كلمة اعتراض من الجواهري.

وهو، في غير ذلك، دمث الخلق واسع الصدر، حلو النكتة، وإن أخذ علينا موقفاً سعى بالتلميح إليه قبل التصريح بوضوح، ومن ذلك أن رهطاً من الشبان العاملين في "اتحاد الشبيبة العراقي" كانوا يؤمون اتحادنا ليعقدوا فيه جلساتهم ولقاءاتهم، وكل منهم طويل القامة مفتول العضل، ولا علاقة لهيئاتهم بالشعر ولا بالأدب، وقد طال صبر الجواهري وهو يراهم كل يوم أمامه، وذات مرة همس في أذني وهو يضحك: "أبو عمر.. ألا ترى أن صحة شعرائنا قد تحسنت أكثر من اللازم". فأدركت بسرعة مقصده، الذي بلغته للآخرين ممن بلغوا أعضاء الشبيبة، مفتولي العضل، بتقليل زيارتهم لاتحاد الأدباء.

وتختلف بنا الأحداث المؤلمة في بلدنا من أرض إلى أرض، ويكون أن نلتقي من آن لآن، فنسهر إلى مطلع الفجر في فندق في "براغ" وهو يتحدث بذكرياته ويقرأ من جديد شعره. وعن "الدار العصرية للنشر" ببيروت التي كنت أشرف على مطبوعاتها الأدبية، صدر ديوانه، وناشني بعض غضبه عليّ لأسباب لا ناقة لي فيها ولا جمل. ويزورني بعد ذلك في بيروت، وتطول سهرتنا وهو يقرأ آخر قصيدة كتبها اسمها "أنيتا ... لكي لا أظلم صاحبتها" ويعيدها ثانية لأسجلها، وقد تداخلت مع إلقائه اللذيذ أصوات المعجبين والمعجبات.. ثم نترك البيت، لوحدنا، لندخل ملهى ونخرج منه إلى مطعم ثم نعود إلى ملهانا الأول لنتمم سهرتنا إلى الصبح والجواهري لا يزال مملوءاً بصحوة لا تريد أن تعترف بأن هناك وقتاً للنوم. وأكتب له إلى "براغ" ويكتب لي "أخي وحبيبي أبا عمر. لكم سررت برسالتك، ولكم تمنيت لو أن لي قدرة التعبير بالحروف حتى عن شيء يسير مما يختلج في صدري من إحساسات عميقة كثيرة الألوان، وارفة الظلال، تجاهك بالذات، وبوصفك أنقى صورة وأجملها لأخوان أغيرة عليّ مثلك.. وعندما يتعلق الأمر بالخط وبالقلم والورق وبالبريد، فأنا صفر على الشمال وأهل ومحل لكل ظنة غير خيرة، وكفوء لكل عتب مر، فهل هذا رد فعل عنيف لكثرة ما لخبطت بالحرف والقلم والورق. فيما قسم لي من حظ عاثر بها؟.. على كل حال غيري من ينسى وغيري من يستهين بذكريات هي سجل كل حياتي. ولكن يا أبا عمر آه لو تعلم من أنا بعدكم وما أنا فيه من دنيا غريبة أجوس خلالها". ومرة أخرى نلتقي في مؤتمر عقد في "هلسنكي" وأشد على يديه طويلاً، وأحس بفرح كبير ونحن معاً في مسيرة رائعة أسهم فيها كل من سارتر ونيرودا وسيمون دي بوفوار وأيليا أهرنبورغ وغيرهم وغيرهم. ثم يكون لنا أن نسافر معاً إلى موسكو ونزور سوية متحف "الأرميتاج" الرائع في "لينينغراد" ونفترق على أمل أن نلتقي.

ويعود به الزمن لبغداد، وظن الرجل الكبير والشاعر الكبير، أنه قد آن له أن يحتضن بلده الحبيب، وأن لا يغادره بعد اليوم. لقد تعب من كل شيء. من المطارات والموانئ وكتابة الرسائل المعبرة عن آلامه ومتاعبه. وتعب حتى من كتابة الشعر. ولكن شيئاً واحداً لم ولن يتعب منه أبداً هو حبه لأهله ووطنه وأرض بلده، هذا

الحب الذي لم يعرفه أي شاعر من شعراء العالم كما عرفه الجواهري. ويحمل لي من بغداد، صديق زارني في بيروت، قصيدته، بل إحدى أروع قصائده..

أرح ركابك من أينٍ ومن سفر

كفاك جيلان محمولاً على الخطر

وينقل إليّ رغبته بأن نعود كلنا إلى الوطن، فأبادر بالرد على قصيدته بقصيدة لا أذكر منها إلا هذه الأبيات:

جاورت سفحك أم جاورت منحدري

سيان تحت سماوات بلا مطر

حتى صحاراك يا أرضي تملكها

مقت فعزت بآل موهم بصري

وصار دربك أنى جئت طارقه

مفازة كل ما في عريها قدري

لمت كواكبها عني وما تركت

إلا دجى يلتقي حبلاً بمنتحر

أبا فرات .. أيها العزيز الكبير.. أعرف أنني أجرح تواضعك الجم إذ أكتب كل هذا، ولكنه حقك علينا جميعاً، حقك علينا في الشاعر والمناضل والبطل. حقك علينا وأنت ما زلت على مثل ما كنت، تحمل جراح غربتك بكثير من الإباء والشمم، وتحمل حبك لوطنك.. هذا الوطن الذي ما زال بعض أبنائه يتواطؤون ضده.

١٩٩٠/١٢/٢٦

ذكرى غياب الجواهري

عبد الرحمن منيف

وتنقضي السنة الثالثة على غياب الجواهري.

كان يظن أن أشياء كثيرة سوف تكتب خلال هذه السنوات الثلاث منذ ساعة رحيله وإلى الآن. ومن شأن هذه الكتابات أن تضيء جوانب عديدة في مسيرة هذا الشاعر الفذ والإنسان المتميز، لكن مما يؤسف له أن هذا لم يتحقق، فما كتب عنه كان ضئيلاً وثانوياً، ولم يخل بعضه من افتراء، الأمر الذي يبعث على الحيرة ويثير التساؤل، فهذا الشاعر الذي كان إلى الأمس القريب ملء السمع والأبصار ينزلق اليوم إلى العتمة، ولا يكاد يذكر إلا إذا جاء ما يذكر به، فما الذي جرى للناس، وما الذي دفعهم إلى الإهمال فالنسيان؟.

هذا السؤال، وما يماثله، لا يطال الجواهري وحده، فالإهمال ثم النسيان يمتدان ليشملا كل من ذهب، وليطاولا كل ما يعتبر ماضياً، وكأن الأحياء يضيقون ذرعاً بالموتى، أو أنهم لا يمتون إليهم بصلة أو بسبب، أو كأن الحياة تعني اللحظة التي تُعاش الآن، أي ليست لها علاقة بما كان قبلها أو بما سيجيء بعدها، لذلك لا حاجة بمن يعيش اليوم أن ينشغل بالذي عاش قبله أو الذي سيعيش بعده، فما مضى لم يعد موجوداً، وبالتالي لم يعد مؤثراً، والذي سيأتي لم يصل بعد، ومعنى ذلك أنهُ لن يقدر لهذين الطرفين أن يلتقيا، أو أن يؤثر أحدهما على الآخر فيما يتخذه من مواقف أو قرارات، وعليه يجب أن لا نشغل أنفسنا بأسئلة لا حاجة إليها ولا فائدة من طرحها، ولا بد أن نفكر فيما نعيشه من زمن، لا قبله ولا بعده، لأن كلاً منهما سيتكفل بنفسه!.

هذه النظرة، إضافة إلى ما يميزها من خطأ وخطل، فإنها غير واقعية وليست ممكنة، لأن الأزمنة متداخلة إلى درجة الامتزاج، ولأن التأثير يفرض نفسه دون سؤال أو استئذان.

أكثر من ذلك، أن العرب المعاصرين يحملون موتاهم على أكتافهم أينما ذهبوا، ويعيشون في تاريخهم والماضي أكثر مما يعيشون في واقعهم وفي اليوم الراهن، وهم لا يفعلون أمراً، ولا يتخذون قراراً إلا بعد استشارة الموتى وتقديم البخور والنذور، علَّ هؤلاء يسمحون أو ينوبون في اتخاذ القرارات!.

هذه هي حقيقة العلاقة بين الطرفين، ومع ذلك تبقى هذه العلاقة غامضة غير معترف بها، وبعض الأحيان ينكر وجودها، وتتخذ مواقف متطرفة لنفيها والتأكيد بعدم تأثيرها، بما في ذلك إهالة كميات كبيرة من التراب على الذين يغيبون والتظاهر بنسيانهم، والادعاء أن ما يتخذ من مواقف نابع من شروط اللحظة، ومن الوقائع التي أملت اتخاذها.

الجواهري بعد أن غاب احتجب تقريباً، لم تكتب عنه دراسات جادة، ولم يتم التطرق إلى مسيرته الشعرية أو الإنسانية إلا لماماً وبأشكال ثانوية. وإذا كان شعره قد غاب الآن فلا خوف عليه من ذلك لأن ما أهمل اليوم سوف يتم تداركه غداً وما نسي الآن سيجعل الكثيرين في وقت لاحق يعيدون النظر ويطلبون التأمل لأن شعره من الأهمية يحمل على الاكتشاف المرة بعد الأخرى بعد أن ينقشع الغبار، وبعد أن تغيب الضجة التي يثيرها عدد من الشعراء المعاصرين بهدف أن يبقوا وحدهم في مركز الضوء وملء العيون. لا خوف إذن على الجواهري وسوف يدرسه الكثيرون وسوف يكون موضع اعتزاز الأجيال القادمة هذا شيء مؤكد، ولا بد أن يعترف له حتى الخصوم وكما حصل في عدة مراحل سابقة أثناء جمع قصائده أو إعادة إصدار دواوينه، فقد تصدى عدد من الباحثين والنقاد البارزين وكتبوا عنه الكثير، ومع ذلك فإن جوانب أخرى من شعره ستكون موضع دراسة واهتمام خاصة وأنه يمثل نهاية مرحلة شعرية كاملة استمرت ما يزيد عن ألف وخمسمائة سنة، إذ بغيابه يسدل الستار على نمط من الشعر كان وحده المساند والمعترف به،

وكان وحده تقريباً يمثل الذائقة الشعرية العربية.

الآن، بغياب الجواهري بعد أن غاب قبله بدوي الجبل، ولعدم وجود شعراء مثل فحولته لهذا اللون من الشعر فإن مرحلة كاملة طويلة وحافلة تنتهي ويفسح المجال لأنماط احتمالات شعرية أخرى مختلفة أن تواصل الرحلة.

لا خوف إذن على شعر الجواهري، وسوف يتجدد ويتألق مرحلة بعد أخرى تماماً كما حصل مع كبار الشعر العربي القديم أمثال المتنبي والمعري وأبي تمام والبحتري، إذ ما زال شعر هؤلاء يدرس ويعاد اكتشافه خاصة وقد امتلك المعاصرون أدوات إضافية ونظرة جديدة في التعامل مع النصوص والكشف عما فيها من جمال وعبقرية وإبداع مما يساعد على تبين مواضع جمالية جديدة وإضافية في هذا الشعر.

الخوف، كل الخوف، ليس إذن على شعر الجواهري فهذا سيأتي أوانه لكن الخوف على الجوانب الأخرى في هذا الشاعر العظيم، الجانب الإنساني وما يندرج في هذا الإهاب حسب الأزمنة والأماكن والحالات للجواهري السياسي، والصحفي والمنتخب ليمثل الشعب في البرلمان، ثم الجواهري المسافر الراحل والقلق الأبدي والباحث عن أشياء يعرفها ويريد الوصول إليها، وعن أخرى يحس بها ويريد أن يتعرف عليها. ثم هناك الجواهري المحدث القارئ والناشر الذي يروي النكتة وذلك الذي تربطه علاقات وثيقة بعدد من الفنانين وكبار المثقفين، وكيف استطاع أن يكون ابن عصره من حيث الهموم والطموحات وبالتالي التعبير عن قلق العصر وعذابه.

إن الجواهري الإنسان بجوانبه المتناقضة، الإيجابية والسلبية، وفي هذا التعدد والتنوع في شخصه وسلوكه، وفي هذا الغنى الذي مثله عبر عمره الطويل، واختلاف الأماكن والتحديات والظروف التي واجهته، هذه الأمور وغيرها جديرة بالتدوين والتوثيق لأنها بمقدار ما تعكس طبيعة الرجل فإنها تعطي فكرة دقيقة وضرورية عن العصر الذي عاش فيه، والعوامل التي كونته وصقلته، وأيضاً الدوافع التي جعلته يتخذ هذا الموقف أو ذاك.

صحيح أن الفنان، أيّاً كانت وسيلته في التعبير، هو في النتيجة الأخيرة ما

يتركه من فن وما يبقى من هذا الفن، ومع ذلك فإن الإلمام بكل المراحل والعوامل التي كونت الفنان وتأثير العصر والبيئة الذين عاش فيهما، هذه المعلومات والتفاصيل تجعلنا على دراية أكبر ومعرفة أعمق ليس بإنتاجه الفني فقط بل وبكل الشروط المكونة والمحيطة التي جعلت الفن يأخذ هذا الشكل، والعصر الذي أملى ازدهار هذا النمط من الفن وبهذا الأسلوب.

الفنان الحقيقي هو الذي يكون ابن عصره الذي يمثل ذلك العصر، وإذا كان الكثير مما يقوله الفنان عن عصره يقوله بشكل غير مباشر، ومن خلال فنه فإن الحلقات المحيطة بهذا الفنان من أصغر الحلقات وأضيقها إلى أكبرها وأكثرها اتساعاً، يمكن أن تعكس، وبأشكال مختلفة جوانب عديدة من حياته وسلوكه وأفكاره والظروف المحيطة به والتي جعلته في النهاية يكون هكذا ويعبر بهذه الطريقة. معنى ذلك أن الحلقات المحيطة بالفنان والمبدع قادرة على إنارة جوانب عديدة من حياته وبالتالي من فنه، وهذا ما يجعل الكتابات التي يسجلها الأقربون ذات قيمة استثنائية لأنها تعكس الأعماق الخفية والدوافع الحقيقية التي أدت لاتخاذ هذا الموقف أو عدم اتخاذه، وبالتالي ما كانت لتتضح هذه الأمور لولا شهادات ذوي العلاقة بالفنان المبدع. وباعتبار شهادات كهذه ليست داخل إطار العمل الفني ذاته، أي ليس لها وجود وظلال في العمل، إلا أن أهميتها كباعث، غير قليلة، الامر الذي يساعد على فهم أفضل للعمل، خاصة وأن الفنان يغفل، معظم الأحيان الإشارة إليها، إذ ربما لم يرها أو يقدر دورها وأهميتها، في الوقت الذي تعني شيئاً للناقد أو لدارس العمل الفني.

وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات الحديثة تعطي أهمية خاصة للبيئة التي عاش في ظلها الفنان، وتلتفت إلى حاضنات العمل الفني، أي الشروط التي ولد خلالها هذا العمل، وتستعين من أجل استحضار هذا الجو إلى جميع العناصر المرافقة، بما في ذلك اليوميات والمذكرات والرسائل.

فإذا عدنا مجدداً من العام إلى الخاص، وتوقفنا عند محطات في إبداع الجواهري، نجد أن قسماً غير قليل من شعره لا يستقر على أرضية ثابتة، ولا يفهم

بدقة إلا إذا ألمنا بمناخ هذا الشعر من حيث العناصر والدوافع والظروف التي قيل خلالها، ثم ما ترتب على ذلك من نتائج.

فقصيدة تأبين عبد الحميد كرامي مثلاً لا تأخذ مداها إلا إذا تم استحضار الجو الذي قيلت فيه، ومحمد دكروب في كتابه "وجوه لا تموت"[(١)] يستحضر هذا الجو حين يتطرق لزيارة الجواهري إلى بيروت بهذه المناسبة. وقصيدة "أخي جعفراً" التي رثى بها الجواهري أخاه الذي سقط في الوثبة لا تستعيد ألقها وحرارتها إلا حين تعرف التفاصيل[(٢)]. ورائعته عن المعري التي ألقيت في الألفية تلقى ضوءاً على طريقة الشاعر في التعامل مع القصائد الكبرى[(٣)]، وكذلك الحال بالنسبة لقصيدته عن عدنان المالكي[(٤)].

إن الأقارب والأصدقاء ثم الذين لهم علاقة عمل أو سكن، وأولئك الذين شهدوا وقائع معينة، إن هؤلاء ومن يماثلهم، أو من في حكمهم، يمكن أن يكونوا بالغي الأهمية والفائدة لو دونوا شهاداتهم عن المبدع الذي تربطهم به علاقة، لأن مثل هذه الشهادات، علاوة على الدقة التي يفترض أن تتسم بها، فإنها صادرة من الداخل، أي ممن لهم صلة بحكم القرابة أو المعرفة المباشرة والعمل، وهي غير متاحة لآخرين من البعيدين أو الغرباء، لذلك تشكل إضافة مميزة تضيء جوانب في حياة المبدع، ويمكن أن تفسر أموراً معينة ما كنت لتفسر أو لتفهم لولا هذه الشهادة.

ولأن الجواهري متعدد ومتنوع، فإن لدى كثيرين ما يقولونه، فالأسرة الصغيرة، الأبناء والبنات، يمكن لواحد منهم، أو أكثر، أن يرسم صورة الجواهري الأب، ولا بد أن تكون هذه الصورة بالغة الدقة والحميمية، وتكون مليئة بالتفاصيل غير المعروفة التي من شأنها أن تظهر الشاعر تحت أضواء جديدة.

---

(١) محمد دكروب، وجوه لا تموت، دار الفارابي بيروت ٢٠٠٠.

(٢) يورد الجواهري بعض التفاصيل في مذكراته.

(٣) المذكرات.

(٤) المذكرات.

وهناك تجربة قريبة قدمها رفعة الجادرجي حين كتب عن أبيه، كامل الجادرجي، فكان كتابه إضافة نوعية هامة[1].

ثم هناك المسيرة الحافلة للجواهري حسب المراحل والأماكن والمواقف والحالات، وما تخلل ذلك من ممارسات، سواء في الصحافة أو النيابة أو في العلاقات السياسية، ثمة عدد كبير من الأصدقاء الأحياء الذين كانت لهم صلة في إحدى المراحل، أو أكثر، ويمكن لهؤلاء أن يقولوا الكثير، باعتبارهم شهوداً أو شركاء، وسوف يكون ذلك إغناء لهذه الشخصية، خاصة وأن ما يتناوله الكثيرون عن مواقف وعلاقات لا بد أن توضح جزءاً من تاريخ وممارسات هذا المبدع، وأيضاً اجتهاداته السياسية، وما الذي دفعه لاتخاذ هذا الموقف. أكثر من ذلك ... يمكن أن يعاد تصوير الصحف التي أصدرها، والكلمات التي كتبها، بحيث تصبح سجلاً لمرحلة تاريخية.

أما الأماكن التي أقام فيها الجواهري، فإنها تشكل محطات بارزة في حياته ومواقفه وعلاقاته، فبراغ، مثلاً، كان يتردد عليها كثيراً، وكان يقيم فيها شهوراً طويلة متواصلة، وتكونت له فيها صداقات وعلاقات ومواقف، يذكر قسماً منها عدد من أصدقائه ومعارفه الذين كانوا يقيمون هناك خلال تلك الفترة. ويقال الشيء ذاته عن مدن أخرى أقام فيها الجواهري في بعض الفترات، ولا بد أن تحظى دمشق بنصيب وافر، إذ بالإضافة إلى المدة الطويلة التي قضاها فيها، فإنها من المدن التي أحبها وارتبط بها منذ وقت مبكر. ولا بد أن تكون الكتابات ـ الشهادات التي تسجل ذات فائدة للتاريخ من جانب، وقد تكشف تميزاً بين فترة وأخرى، بين مدينة والثانية، فيما نظمه من شعر، وتأثير المدن في هذا الاختلاف، من ناحية ثانية.

هذه العناصر، وأخرى أيضاً، تشكل المفاصل الأساسية في حياة وشعر الجواهري، إذ لولا وجودها، أو لو كانت بشكل آخر، لأخذ شعره مساراً مغايراً، ولأصبحت حياته مختلفة، لذلك فإن معرفة هذه العناصر، واكتشاف أنساق جديدة تساعد على تذوق أعمق، وربما مختلف لشعره، ثم لحياته.

---

(١) **رفعة الجادرجي، صورة أب، مركز الأبحاث، بيروت.**

ثم هناك محطات أو منعطفات، وربما لحظات، قد تشكل مفاصل هامة في حياة المبدع أو في إنتاجه، وبالتالي تفسر الاتجاهات والاختبارات التي طبعت حقبة من إبداعه وجعلته هكذا.

إن المبدعين الكبار شأنهم شأن الغابات الكثيفة، إذ يصعب اكتشافهم بالكامل أو دفعة واحدة، ولا بد أن يجري ذلك مرة بعد أخرى، وعبر وسائل متعددة، اعتماداً على المعلومات الجديدة التي تتوفر فترة بعد فترة، ومن خلال الأدوات النقدية التي يمكن الاستعانة بها. في إعادة قراءاتهم. فحين نستعين بأدوات علم النفس نبحث عن تصرفات وسلوكيات لها علاقة بهذا العلم، وبالتالي قادرة على تفسير بعض الظواهر. وحين نستعين باللغة كأداة للكشف فإننا نسترشد بها من حيث المفردات وظلالها للدخول إلى عالم هذا المبدع، وتحديد المؤثرات التي كونت ذاكرته وأعطتها نكهة جعلتها مختلفة عن غيرها، وهكذا بالنسبة للأدوات الأخرى في التحليل والنقد، ومن أجل تحديد مكونات المبدع.

مثل هذه المفاتيح قد لا تتيسر عن طريق الفنان مباشرة، ربما لأنه لا يريد أن يسلم الآخرين مفاتيحه، أو لعدم المعرفة الواعية بهذه المفاتيح ودلالاتها المتعددة، الأمر الذي يكشفه الناقد، أو الأسلوب الجديد لاقتحام هذا العالم ومعرفة أسراره وتعقيداته وخلفياته، وهذا الذي يمكن أن يقدمه بعض الذين لهم صلة بالمبدع، بحيث تتكشف اللحظات البراقة والفاصلة في حياته وفنه.

لقد جرت الإشارة، سنة رحيل الجواهري، لو أن بعض الذين عاصروه، من بقى منهم حياً، أن يدلي بشهادته، وأن تجمع مع شهادات سابقة، كي تكون إضاءة إضافية أثناء قراءة الشاعر من جديد، ولا تزال هذه الدعوة قائمة وضرورية، وفي الجانب الإنساني تحديداً، لأن شعره كما أشرنا، لا خوف عليه، ولا بد أن يأتي يوم يدرس فيه من جديد وتكتشف آفاق هذه الغابة الكثيفة والدائمة الخضرة.

محمد مهدي الجواهري

مختارات شعرية

جرِّبيني

نشرت في جريدة "العراق"، العدد ٢٩٠١ في ٢٣ تشرين الأول ١٩٢٩.

جــرِّبيني مــنْ قبــلِ أن تــزدَريني　　وإذا مــا ذممــتِني فــاهجرِيني

ويَقينــاً ســتندمينَ علــى أنَّــ　　ـكِ مـن قبـلُ كنـتِ لمْ تعـرفيني

لا تقيــسي علــى ملامــحِ وجهــي　　وتقاطعيــهِ جميــعَ شــؤوني

أنــا لــي في الحيــاةِ طبــعٌ رقيــقٌ　　يتنــافى ولــونَ وجهــي الحــزين

قبلَــكِ اغــترَّ معــشرٌ قرأونــي　　مــن جــبينٍ مكلَّــلٍ بالغُــصون

وفريــقٌ مــن وجنــتينِ شَحوبيــ　　ـن وقـدْ فاتـتِ الجميـعَ عُيـوني

إقـرأيني منهـا ففيهـا مطـاوي الـ　　ـنفسِ طُـرّاً وكـلُّ سـرٍّ دَفـين

فيهمــا رغبــةٌ تفــيضُ وإخــلا　　صٌ وشــكٌّ مخــامرٌ للــيقين

فيهمــا شــهوةٌ تثــورُ وعقــلٌ　　خــاذِلي تــارةً وطــوراً مُعــيني

فيهمــا دافــعُ الغريــزةِ يُغرينــ　　ـي وعــدوى وراثــةٍ تَــزويني

******

إنا ضدُّ الجمهور في العيشِ والتفـ ـــ ـــكيرِ طُــرّاً وضـــدُّه في الـــدِّين

كلُّ ما في الحياةِ من مُتع العيـ ـــ ـــشِ ومـــن لـــذَّةٍ بهـــا يـــزدهيني

التقاليــــدُ والمــــداجاةُ في النـــا ـــ سِ عـــدوٌّ لكـــلِّ حُــــرٍّ فطـــين

أنجِدِيني: في عـالمٍ تَـنهشُ "الذُئـ ـــ ـبانُ" لحمي فيه..... ولا تُسلِميني

وانا ابنُ العشرين مَنْ مُرجعٌ لي إنْ تَقَـــصَّتْ لـــذاذَةَ العـــشرين

******

إِبسِمي لي تَبْسِمْ حياتي، وإنْ كا ـــ نـــتْ حيـــاةً مليئـــةً بالـــشُّجون

أنـصِفيني تُكفِّري عن ذُنوبِ الـ ـــ ـــناسِ طُـــرّاً فـــإنهمْ ظلمـــوني

إِعطفي ساعةً على شاعرٍ حُر رقيـــقٍ يعـــيشُ عـــيشَ الـــسجين

أخـــذتني الهمـــومُ إلاّ قلـــيلاً أدركـــيني ومـــن يـــديها خـــذيني

******

ساعةً ثم أنطوي عنكِ محمو ــ لاً بكُرهٍ لظُلمةٍ وسكون

حيث لا رونقُ الصباح يُحيِّينـ ــ ـي ولا الفجرُ باسماً يُغريني

حيثُ لا "دجلةٌ" تلاعبُ جنبيـ ــ ـها ظِلالُ النخيلِ والزَّيتون

حيثُ صَحبي لا يملِكونَ مُواسا ــ تي بشيءٍ إلاّ بأنْ يبكوني

مَتِّعيني قبلَ المماتِ فما يُدريـ ــ ـكِ ما بعدَه وما يُدريني

وهَبي أنَّ بعدَ يوميَ يوماً يقتضيني مُخلِّفاتِ الدُّيون

فمَنِ الضامنونَ أنَّكِ في الحشـ ــ ـرِ إذا ما طَلَبتني تجديني

فستُغرينَ بالمحاسنِ رُضوانـ ــ ـاً فيُلقيكِ بين حُورٍ وعِين

وإنا في جهنَّمٍ معَ أشيا ــ خٍ غُواةٍ بغيِّهِمْ غمروني

أحرَجَتني طبيعتي وبآرا ــ ئهم ازْدَدْتُ بَلةً في الطين

بالشفيعِ "العُريان" استملكي خيـ ــ ـرَ مكانٍ وأنتِ خيرُ مكين

ودَعـيني مُـستعرضاً في جحيمـي كـلَّ وجـهٍ مُـذمَّمٍ ملعـون

وستُـشجَينَ إذْ تـرَينَ مـعَ البُـز ـ لِ القنـاعيسِ حيرةَ ابـن اللبـون(١)

عـن يـساري أعمـى المعـرَّةِ "والـشيـ ـخُ" الزهـاويُّ مُقعداً عـن يمـيني(٢)

إِئْـذني لـي أنـزل خفيفـاً علـى صدرك عذباً كقطـرة مـن مَعـين

وافتحي لي الحديثَ تستملحي خفَّـ ـةَ رُوحـي وتـستطيبي مُجـوني

تعـرِفي أنـني ظريـفٌ جـديرٌ فـوقَ هـذي "النهـود" أنْ تَـرفعيني

مـؤنسٌ كابتـسامةٍ حـولَ ثغريـ ـكِ جذوبٌ كسحرِ تلكَ العيون

******

إِسمحـي لـي بقُبلـةٍ تملِكـيني ودعـي لـي الخَيـارَ في التعـيين

قـرِّبيني مـن اللـذاذةِ ألمَـسْـ ـها أريـني بداعـةَ التكـوين

---

(١) البزل جمع "بازل" وهو الجمل الذي شق نابه وبزل. و"القناعيس" الإبل القوية الشديدة وفي البيت إشارة إلى قول القائل:

و"ابن اللبون" إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة "البزل القناعيس".

(٢) في البيت إشارة إلى الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي، وكان الجواهري من أخص الشباب العراقي به، وأكثرهم ملازمة له. وللزهاوي نكتة معروفة حول هذا البيت هو قوله: أشد ما يعجبني فيه أن الجواهري لم يكتف بإنزالي في جهنم وإنما جعلني مقعداً فيها أيضاً.. وكان الزهاوي مصاباً بشلل خفيف في رجليه.

أنــزليني إلى "الحــضيضِ" إذا مــا		شــئتِ أو فــوقَ ربــوةٍ فــضعيني
كــلُّ مــا في الوجــودِ مــن عقبــاتٍ		عــن وصــولي إليــكِ لا يَثنــيني

******

إِحملــيني كالطفــلِ بــين ذراعيــ ــ ــكِ احتــضاناً ومثلَــه دللِّــيني
وإذا مـــا سُـــئلتِ عـــني فقـــولي		لـــيسَ يـــدعاً إغاثـــةُ المـــسكين
لـــستُ أُمَّـــاً لكـــنْ بأمثـــالِ "هـــذا"		شـــاءتِ الأُمهـــات أنْ تبتلـــيني
أشـــتهي أنْ أراكِ يومـــاً علـــى مـــا		ينبغـــي مِـــن تكـــشُّفٍ للمـــصُون
غــيرَ أنــي أرجــو إذا ازدهــتِ النفــ ــ ــسُ وفــاض الغــرامُ أنْ تعــذُريني
"إِلطمـــيني" إذا مَجُنـــتُ فعمـــداً		أتحـــرَّى المُجـــونَ كـــي تَلْطِمـــيني
وإذا مــا يــدي اســتطالتْ فمِــنْ شَعــ ــ ــرِكِ لُطفــاً بخُــصلةٍ قيِّــديني
مــا أشــدَّ احتياجــةِ الــشاعرِ الحــسَّا ــ سِ يومـــاً لـــساعةٍ مِـــن جنـــون

طرطرا!...

نظمت عام ١٩٤٥.

نشرت، أول مرة، في جريدة "الرأي العام"، العدد ١٤٨٤ في ٢٤ آذار ١٩٤٦.. وقدمتها:

((إنها من وحي الظروف خلال تطبيق مرسوم صيانة الأمن العام وسلامة الدولة رقم ٥٦ لعام ١٩٤١ على هذه الجريدة في اليوم الأول من شهر آب ١٩٤٥ التي عطلت بموجبه قرابة شهرين)).

وأضفت:

وهي على النمط الساخر والوزن من القصيدة الدبدبية المشهورة التي قيلت في العهد العباسي ومطلعها:

أي دبـــــدبي تدبـــــدبي ... أنـــا علـــي "المغربـــي"

أيْ طرطـــــرا تطرطـــــري ... تقـــــدَّمي، تـــــأخَّري

تَـــــــشيَّعي، تـــــسنَّني ... تَهـــــوَّدي، تَنـــــصَّري

تكـــــــرَّدي، تَعرَّبـــــــي ... تهـــــاتَري بالعُنـــــصرِ

تَعمَّمــــــي، تَبَرنطـــــي ... تَعقَّلـــــي، تـــــسدَّري

كـــوني ـــ إذا رُمــتِ العُلــى ... مـــن قُبُـــلٍ أو دُبُـــرِ

صـــــالِحةً "كـــــصالحٍ" ... عـــامرةً "كـــالعُمَري"

*****

وأنـــــتِ إنْ لم تَجِـــــدي أبـــــاً حميـــــدَ الأثَـــــر

ومَفخَـــــراً مـــــن الجُـــــدو ـــ دِ طيِّـــــبَ المُنحـــــدَر

ولم تَـــــرَي في الـــــنَّفسِ مـــــا يُغنيـــــكِ إنْ تفتخـــــري

شـــــأنُ عِـــــصامٍ قـــــد كَفَتْـــــ ـــ ـــه الـــــنفسُ شَـــــرَّ مَفْخَـــــر

فالتَمـــــسي أبـــــاً سِـــــوا ـــ هُ أشِـــــراً ذا بَطَـــــر

طُـــــوفي علـــــى الأعـــــرابِ مـــــن بـــــادٍ ومـــــن مُحتَـــــضِر

والتَمِـــــسي مـــــنهم جـــــدو ـــ داً جُـــــدُداً وزَوِّري

تَزيَّـــــدي تَزيَّـــــدي تعنَّـــــزي تَـــــشمَّري

في زَمَـــــنِ الـــــذَرِّ إلى بَـــــداوةٍ تَقَهْقَـــــري

******

تَقَلــــــبي تَقَلُّـــــبَ الـــــدهرِ بـــــشتَّى الغِيَـــــرِ

تـــــصرَّفِ كمــــا تـــشا ــ ئـــــينَ ولا تعتَـــــذري
لمـــن؟!! أللنـــاسِ؟!! وهـــم حُثالـــــــةٌ في سَـــــقَر
عبيـــدُ أجـــدادكِ مــــن رِقٍّ ومــــن مُـــستأجَر!
أمْ للقـــــوانين ومـــــا جـــاءَتْ بغَـــير الهَـــذَر
تـــأمرُ بـــالمعروف والمـــ ــ ـنكَر فـــوقَ المِنبَـــر
شَـــيْءُ أبـــى المعـــروفِ في شُـــوَيَّ أمِّ المُنْكَــــرِ[1]
أمْ للـــضميرِ والـــضمي ــ ـــرُ صُــنْعُ هــذا البَــشَر؟!
تَعِلَّـــــــةٌ لـــــصائمٍ فَطـــــــيرةٌ لمُفطِّـــــرِ
لمـــن؟!! أللتـــاريخ؟!! وهـــ ــ ـــو في يَـــدِ المُحَبِّـــر
مُـــسَخَّرٌ طَـــوْعَ بنـــا ــ نِ الحـــاكم المُـــسخِّرِ
بـــدَرْهَمٍ تُقَلِّـــبُ الــــ ــ ـــحالَ يَـــدُ المُحـــرِّر

---

(١) شُويَّ، بتشديد الياء: كناية عن عضو التأنيث.

قـــد تَقــــرأُ الأجيــــالُ في دُفَّــــةِ هـــــذا المحـــــضَر

عــن مِثْــلِ هــذا "العَـصْر" أن قــد كــان زيــنَ الأعــصُر

وأنَّـــــــه مـــــــن ذَهَـــــبٍ وأنّـــــه مـــــن جَـــــوهر

أم للمقـــــاييس اقتـــــضا ـــ هـــنَّ اخـــتلافُ النَظَـــر؟

إنَّ أخَـــــا طَرْطَـــــرَ مـــــن كـــلِّ المقـــاييس بَـــري!

******

أي طرطـــرا إن كـــانَ شَعـــ ـــ ـــبٌ جــاع أو خَلــقٌ عَــري

أو أجْمَـــــعَ الـــــستُّ المـــــلا ـــ يــــينُ علـــى التـــذمُّر

أو حَكَـــــمَ النــــساءُ حُكـــــ ـــ ـــم الغاصـــبِ المقتَـــدِر

أو صـــــاحَ نَهبــــاً بـــــالبلا ـــ د بـــــائعٌ ومـــــشتري

أو نُفِّــــــذَ المرســــــومُ في محــــابرٍ وأســــطُر

أو أُخِـــــذَ الـــــبريءُ بالمـــــ ــــ ـــــجرمِ أخـــــذَ "طرطـــــر"

أو دُفِـــــــع العــــــرا ــــ قُ للــــــذلِّ أو التــــــدهورِ

فـــــاحتكمي تحكَّمـــــي وتُحمَـــــدي وتـــــؤجَري

******

أي طرطـــــرا تطرطـــــري وهلِّلـــــي وكَبِّـــــري

وطَبِّلـــــي لكـــــلِّ مـــــا يُخـــــزي الفَتَـــــى وزمِّـــــري

وسَـــــبِّحي بحمـــــدِ مـــــأ ــــ فـــــونٍ وشـــــكرِ أبتَـــــر[1]

أعطـــــي سمـــــاتِ فـــــارعٍ شَـــــمَردَلِ لـــــبُحتر[2]

واغتَـــــصِبي لـــــضِفدعٍ سمـــــاتِ ليـــــثٍ قَـــــسْور

وعَطِّـــــري قـــــاذورةً وبالمـــــديح بَخِّـــــري

(١) الأبتر: الخبيث من الحيّات.

(٢) الشمردل: الطويل. والبحتر: القصير.

وصـــــيِّري مـــــن جُعَـــلٍ   حديقـــــةً مـــــن زَهَـــــر
وشَـــــبِّهي الظـــلامَ ظُلْـــــ ــــ ـــــماً بِالــــصَباح المُـــسفِر
وألبـــــسي الغـــــبيَّ والأ ــــ حمـــــقَ ثَـــــوبَ "عبقـــــر"
وافرغـــــي علـــــى المخـــا ــــ نيـــــثِ دروع "عـــــنتر"
إن قيـــــلَ إنَّ مجـــــدَهمُ   مزيَّـــــفٌ فـــــأنكري
أو قيـــــلَ إن بطـــــشهم   مـــــن بَطْـــشة المـــستعمِر
وإنَّ هـــــذا المـــــستعيـ ــــ ــــرَ صـــولةَ الغَـــضَنفَر
أهـــــوَنُ مـــــن ذبابـــــةٍ   في مـــــستحَمٍّ قَـــــذِر
فهـــــي تطـــــير حُـــــرَّةً   جَناحُهـــــا لم يُعَـــــر
وذاكَ لـــــو لم يـــــستعِرْ   جَناحَـــــه لم يطـــــر
فغـــــالِطي وكـــــابري   وَحَـــــوِّري وزوِّري

******

أي طرطـــرا سِـــيري علـــى نَهجِهـــــــمُ والأثَـــــــر

واســــتَقبلي يومَــــك مـــــن يـــــومهمُ واســــــتدبِري

وأجمعِـــــي أمــــرِكِ مــــن أمـــــرِهِمُ تَـــــستَكثِري

كُـــوني بُغاثـــاً واُســـلَمي بـــالنفسِ ثـــم استَنْـــسِري[1]

إنْ طوَّلُـــــوا فطَـــــوِّلي أو قـــــصَّروا فقَــــصِّري

أو أجرَمُــــوا فاعتـــــذري أو أنـــــذروا فبــــشِّري

أو خَبَطـــوا عـــشوا فقُـــو ـ لـــي: أيُّ نجـــمٍ نيِّـــر

أو ظلمــــوا فــــأبرزي الظُلْـــمَ بـــأبْهى الـــصُوَّر

أو صَــــنَعوا مــــا لم يـــبرِّرْ منطـــقٌ فـــبرِّري

******

(١) بغاث الطير: الحامل منه والحقير. واستنسر: صار كالنسر.

أي طرطـــــرا لا تُنكِـــــري ذَنبـــــاً ولا تَـــــسْتَغفِري

ولا تَغطِّـــــــي ســـــــوءةً بانـــــــت، ولا تَتَّـــــزِري

ولا تُغـــضِّي الطـــرفَ عـــن فَـــرط الحيـــا والخَفَـــر

كُــــوني علـــى شـــاكلةٍ مـــن أمـــرهم تُـــؤَمَّري

كُــوني علــى شــاكلةِ الـــ ـــ ـــوزيرِ بـــادي الخَطَـــر

أيْ طرطـــرا كُــوني علـــى تاريخِـــــك المُحتقَـــــر

احـــرَصَ مـــن صـــاحبة النِـــ ـــ ـــحييْن إنْ تَـــذكَّري

******

طـــولي علـــى "كِـــسرى" ولا تُعنَـــيْ بتـــاج "قَيـــصر"

كـــوني علـــى مـــا فيـــك مـــن مـــساوئٍ، لم تُحـــصَر

كـــوني علـــى الأضـــداد في تكوينـــك المُبعثَـــرِ

شـــامخةً شمـــوخَ قَـــر ـــ ن الثَـــور بـــين البَقَـــرِ

******

أيْ طرطـــرا أُقـــسم بالـــسـ ـــ ـــــــــــويكةِ المـــــــشهَّر

والخَـــــرزِ المَعقـــود ﭬ الــــ ـــ ـــــبطن فُوَيـــق المـــشعر

بوجهــــــــكِ المعتكــــــــر وثَغـــــــرِك المنـــــــوَّرِ

وعينِــــك الحمـــــراءِ تــــر ـــ مــــي حاســــداً بالـــشَرَر

وصــــــنوك الثـــــور يُثـــــا ـــ ر غيظُـــــــه بــــــالأحمر

أُقـــــــسم "بالكـــــــافور" لا أقـــصِدُ شَـــتم "العَنْـــبر"

لأنـــــتِ فـــــوقَ البـــــشَر فـــوق القَـــضَا والقَـــدَر

******

أيْ طرطـــرا ((يـــا لَـــكِ مـــن قُبَّـــــــــرة بمَعمَــــــــــــر

خــــلا لـــــكِ الجـــوُّ)) وقــــد طــاب ((فبيـضي واصـفِري))

((ونقِّـــري)) مــــن بَعــــدِهم ((مـــا شـــئت أن تُنَقِّــري))

قـــــد غَفَـــل الـــــصيّادُ ﭬ "لنـــدَنَ" عنـــك فابـــشِري!



حافظ ابراهيم

نظمت في وفاة حافظ ابراهيم. نشرت في جريدة "العراق"، العدد ٣٧٦٩ في ٢٢ آب ١٩٣٢. نشرت في ط٣٥.

نَعَـــوا إلى الـــشعرِ حُـــرّاً كـــان يَرعـــاهُ
ومَـــنْ يَـــشُقُّ علـــى الأحـــرارِ مَنعـــاهُ

أخنـــى الزَّمـــانُ علـــى نـــادٍ "زهـــا" زَمنـــاً
بحـــافظٍ واكتـــسى بـــالحُزنِ مغنـــاه

واســـتُدْرجَ الكوكَـــبُ الوضـــاءُ عـــن أُفـــقٍ
عـــالي الـــسَّنا يُحْـــسِرُ الأبـــصارَ مَرقـــاه[١]

أعْـــززْ بأنّـــا افتقَـــدْناهُ فأعوزنـــا
وجـــهٌ طليـــقٌ وطَبـــعٌ شَـــفَّ مجـــراه

وأنَّ ذاكَ الخفيـــفَ الـــروحِ يُوحـــشُهُ
بيـــتٌ ثقيـــلٌ علـــى الأحيـــاءِ مَثـــواه

---

(١) استدرج: زحزح وانزل.

ضـــيفٌ علـــى رِمَـــمٍ شـــتَّى طبائعُهـــا
مـــا كـــانَ يجمعُهـــا حـــالٌ وإيَّـــاه[1]

إنَّ الـــذي هـــزَّ كـــلَّ النـــاس مَحـــضَرُهُ
لم يبـــقَ في النـــاس منـــه غـــيرُ ذكـــراه

نـــأتْ رعايَتُنـــا عنـــه وفارَقَنـــا
فِـــراقَ مُحتَـــشمٍ فلْيَرعَـــهُ اللّه

******

حـــوى التُـــرابُ لِـــساناً كُلُّـــهُ مُلَـــحٌ
مـــا كـــلُّ مُحتَـــرفٍ للـــشِّعرِ يُعطـــاه

للأريحيَّـــةِ مَنْـــشاهُ، وَمَـــصْدَرُهُ
وللـــشَّجاوةِ والإينـــاسِ حَـــدّاه

جـــمُّ البَدائـــهِ، سَـــهْلُ القـــولِ، ريِّـــضُه
وطالمـــا أعـــوزَ المِنطيـــقَ إبـــداه[2]

(١) الرمم: جمع رمة ما يلي من العظام.

(٢) البدائة هنا ما يبده من القول عفواً ومطاوعة وبديهة، وكان الفقيد "حافظ ابراهيم" معروفاً بذلك. راجع المستدرك.

جَـــلا القِـــراعُ الـــشبا منـــهُ ولطَّفـــهُ
طــولُ التَّجـــاربِ في الـــدُّنيا ونقَّـــاه[1]

تخيَّــــر الكَلِـــمَ العــــالي فـــسَلَّطهُ
علــــى القــــوافي فحلاّهـــا وحـــلاَّه

ومَــــدَّها ببَنــــاتِ الفِكـــرِ مُرسَـــلَةً
تَرَسُّــــلَ الـــسَّيلِ أدنـــاهُ كأقـــصاه[2]

مِـــن كـــلِّ مَعنـــىً لطيـــفٍ زاد رونَقَـــهُ
إبـــداعُ "حـــافظَ" فيـــهِ فهـــو تيَّـــاه

فلـــو يُطيـــق القـــريضُ النُطـــقَ قابلَـــهُ
بالـشُكرِ عـن حُـسن مـا أسـدى فـأطراه

******

عـــرائسٌ مـــن بنـــاتِ الفكـــر حاملـــةٌ
مِـــن حـــافظٍ أثـــراً حُلـــواً كـــسِيماه

ومـــا الـــشعُور خيـــالُ المـــرءِ يَنْظِمُـــه
لكنَّـــــهُ قِطِعــــاتٌ مِــــن ســــجاياه

---

(١) شبا السيف: حده واستعير هنا للسان الشاعر ومقوله.

(٢) الترسل: التمهل والترفق وهو من مميزات البيان.

أخـــو الحمـــاسِ رقيقـــاً ﯙ مقاطعـــهِ

تكـــــادُ تُلْمَـــــسُ نِـــيرانٌ وأمـــــواه

وذو القــــوافيِ لِطافــــاً ﯙ تَسَلـــسُلها

مـــا شـــانَها عنَـــتٌ يومـــاً وإكـــراه[1]

وابـــنُ الـــسِنينَ نَقيَّـــاتٍ صـــحائفُها

أُولاه فائـــــضةٌ حُـــــسناً وأُخـــــراه

فـــإنْ يكـــنْ خُـــضِدت بـــالموتِ شَـــوكتُهُ

أو نـــالَ وقـــعُ البِلـــى منـــهُ فعـــرّاه[2]

فمـــا تـــزالُ مَـــدَى الأيـــامِ تُؤنـــسُنا

نظـــائرٌ مِـــــن قوافيـــــهِ وأشـــــباه

شـــعرٌ تُحِـــسُّ كـــأنَّ الـــنفسَ تَعـــشَقهُ

أو أنَّهـــا اجْتُـــذِبتْ بالـــسِحر جـــرّاه

(١) العنت: الشدة والإرهاق.

(٢) خضدت: كسرت.

زانَـــتْ مواقِفـــهُ جُنديَّـــةٌ كُـــسيَت
مـــن الرزانـــةِ مـــا لمْ تُكْـــسَ لـــولاه[1]

مـــشى بمـــصرَ فلـــم يَعثُـــر بهـــا ورمـــى
مُحتـــلَّ مِـــصرَ فلـــم يُخطِئْـــهُ مَرمـــاه

رِيـــعَ القـــريضُ بفـــذٍّ كـــانَ يملـــؤهُ
مـــن الجمـــيلينِ مَبنـــاهُ وَمَعنـــاه

يُعطـــي لكـــلِّ مقـــامٍ حقَّـــهُ، ويَـــرَى
حقّـــاً لـــسامعِهِ لا بُـــدَّ يَرعـــاه

قـــد يُوسِـــعُ الامـــرَ تفـــصيلاً يُحتِّمـــه
حـــالٌ، وقـــد يَكتفـــي عنـــهُ بفَحـــواه

وقـــد يجـــيءُ بمـــا لم يَجْـــرِ في خَلَـــدٍ
وقـــد يقـــولُ الـــذي لم تهـــوَ إلاَّه

فـــمٌ مـــن الـــذهب الأبريـــزِ مَنطِقُـــهُ
جـــاءتْ تُعـــزِّي بـــه الأشـــعارَ أفـــواه

(١) جندية: إشارة إلى ماضي حافظ ابراهيم في الخدمة العسكرية.

اليـــومَ يبكيـــهِ دامـــي القلـــبِ طارَحَـــهُ
بـــــــدامياتِ قوافيـــــــهِ فواســـــــاه

وضـــيِّقُ الـــصدرِ بالأيـــام غالطَـــهُ
عـــنِ الحيـــاةِ ومـــا فيهـــا فعـــزَّاه

حَـسبُ الزمـانِ وحَـسبُ النـاسِ مَنقـصةً
أن طـالَ مـن حـافظٍ في الـشعر شَـكواه

مـــا للزمـــانِ ونفـــسٍ ريـــعَ طائرُهـــا
ألمْ تكـــنْ في غِنـــىً عنهـــا رزايـــاه

******

ضـــحيَّةَ المـــوتِ هـــل تهـــوى مَعـــاودَةً
لِعَـــالمٍ كنـــتَ قَـــبلاً مِـــن ضَـــحاياه

يـــا ابـــنَ الكِنانـــةِ والأيـــامُ جـــائرةً
والـــــدهرُ مُغْرمـــــةٌ بـــــالحُرِّ بَلـــــواه

لُقِّيـــتَ مِـــن نَكَـــدِ الـــدُّنيا ومحنتهـــا
مـــا كنـــتَ لـــولا إبـــاءٌ فيـــكَ تُكفـــاه

مـــا لـــذَّةُ العـــيشِ جَهـــلُ العَـــيشِ مبـــدأُه
والهـــمُّ واسِـــطهُ، والمـــوتُ عُقبـــاه

يــا ابــنَ الكِنانــة مــاذا أنــتَ مَــشتَملٌ
عليــه ممَّــا سَــطَا مَــوتٌ فَغَطَّــاه[1]

سِــتّونَ عامــاً أرتْــكَ النــاسَ كُــنهَهَمُ
والـــدهرَ جـــوهرَهُ والعُمْـــرَ مَغـــزاه

وبَـــصَّرتكَ بأطبـــاع يَـــضيقُ بهـــا
صـــدرُ الحلـــيم وتأبـــاه مَزايـــاه

بَـــدَا علـــى نَفَثـــاتٍ منـــكَ خالـــدةٍ
عـــيشُ الأبـــاة ونُعمـــاهُ وغُمَّـــاه

وخَبَّرتنـــا القـــوافي عـــن أخـــي جَلَـــدٍ
صُـــلب الإرادةِ يُعْيـــي الـــدهرَ مأتـــاه

خـــاضَ الزمـــانَ وأبـــلاهُ مُمارســـةً
لم يَخْـــفَ عنـــه خـــبيٌّ مِـــن ثنايـــاه

وعـــنْ مُـــصارعةِ الـــدُّنيا علـــى نَـــشَبٍ
الحَـــالُ تُوجبـــهُ والـــنفسُ تأبـــاه

(١) البيت يتضمن التساؤل من الشاعر عما يحمل معه إلى القبر من آلام وإحساسات لم يكتب له التعبير عنها في شعره.

وعــن مواقــفَ تُــدمي القلــبَ غُــصَّتها

لا المـــالُ يَـــدفعُ ذِكراهـــا ولا الجـــاه

وعـــن أذايـــا يَهـــدُّ الـــنفسَ مَحمِلُهـــا

ويَـــــستثيرُك جانيهـــــا ومَـــــرآه

******

إنَّـــا فَقَـــدناهُ فقْـــدَ العَـــينِ مُقلتهـــا

أو فقْـــدَ ســـاعٍ إلى الهيجـــاءِ يُمنـــاه

مـا انفَـكَّ ذِكـرُ الـرَّدى يجـري علـى فمـه

ومـــا أمـــرَّ الـــرَّدى، بـــل مـــا أُحـــيلاه

ومَـــنْ تُبَـــرِّحْ تَكـــاليفُ الحيـــاةِ بـــه

ويَلْمـــسِ الـــرَّوْحَ في مَـــوتٍ تمنَّـــاه

إنّـــي تعـــشَّقتُ مِـــن قبـــلِ المُـــصابِ بـــه

بيتـــاً لـــه جـــاء قبـــلَ المـــوتِ يَنعـــاه:

لبـــسته ودُمـــوعُ العـــينِ فائـــضةٌ

والـــنَّفسُ جياشـــةٌ والقَلـــب أوّاه

ستالينغراد .....

نظمت عام ١٩٤٣ تحية للشعوب السوفياتية لدفاعها المجيد عن مدينة "ستالينغراد" وكسر شوكة الجيوش النازية الغازية.

نشرت في جريدة "الرأي العام"، العدد ٧٠١ في ٢١ شباط ١٩٤٣.

نـــضت الـــروح وهزتهـــا لـــواء وكـــسَته واكتـــستْ منـــه الـــدماء
واســـتمدتْ مـــن إلـــه الحَفـــلِ والـــ ـــبيتِ والمـــصنعِ عَزمـــاً ومَـــضَاء
رَمـــتِ الـــزرعَ بعـــين أثلـــجَ الـــدَ ـــمعُ فيهـــا ضـــرمَ الحِقـــد اجتـــواء
أُعجِلـــتْ عنـــهُ فآلـــت قَـــسَماً أن ستـــسقيهِ دمَ الأعـــداءِ مـــاء
ومـــشت في زحمـــةِ المـــوتِ علـــى قـــدَمٍ لم تخـــشَ مَـــيْلاً والتـــواء
أقـــسمتْ باســـم عظـــيمٍ كرُمـــت باسمِـــه أنْ لا تُهـــين العظمـــاء

******

يـــا "ســـتَالينُ" ومـــا أعظَمهـــا في التهجِّـــي أحرُفـــاً تـــأبى الهجـــاء
أحـــرفٌ يـــستمطرُ الكـــونُ بهـــا إنعتاقـــاً وازدهـــاراً، وإخـــاء
خـــالقُ الأُمَّـــةِ لم يمـــنُنْ ولم يبـــغِ ـــ لـــولا أرَجُ الزهـــر ـــ ثنـــاء

وزعـــيمٌ شـــعَّ فـــيمنْ حولَـــه ... قـــبسٌ منـــه فكـــانوا الزعمـــاء
زَرَّ بُرْديـــــهِ علـــــى ذي مِـــــرّةٍ ... فــاض إشــفاقاً، وبأســاً، وعنــاء[1]
مــــسّه الظلـــمُ فعـــادى أهلـــه ... وامــترى البــؤسَ فَحَــبَّ البؤســاء
وانـــبرى كـــالغيمِ في مُـــضْحِيةٍ ... فـــسقى دهـــراً، وأحيـــا، وأفـــاء

******

بُـــوركَ البـــاني وعاشـــت أمـــةٌ ... وفَّـــتِ البـــاني حُقوقـــاً والبنـــاء
قيـــل للعـــيشِ ففاضـــت أُمنـــاء ... وإلى المـــوتِ ففاضـــتْ شـــهداء
ومـــشى التـــاريخُ مـــوزونَ الخُطـــى ... مـــا انحنـــى ذُلاًّ ولا ضـــجَّ ادّعـــاء
هـــذه التربـــةُ لا مـــا سُـــمِّيت ... وطنـــاً يُنبِـــتُ جوعـــاً وعـــراء
وهــي ذي الحُفــرةُ إذ طــارت عَجاجــاً ... ألــفُ نفــسٍ معهــا طــارت فــداء
وهــو ذا العِــرضُ فهــل تبغــي وُقــاةً ... مـــثلَهم، أو مثـــلَ ذا تبغـــي وَقــاء

******

(١) المِرّة: القُوة.

قفْ على "القَفْقاس" وانظر موكبَ ـ ـمجدِ والعزَّةِ يمشي خُيَلاء

وسلِ (القُوزاقَ) هل كان دماً لمعانُ السيفِ أم كان طلاء

وجدَ الغادرُ من قَسوتها ما رأى من لطفها الضيفُ سخاء

والعتاقُ الجردُ هل لاقت بما عاقَها من جُثَثِ القتلى عناء[1]

نفخت من وَدَجَيْها أن رأتْ مُمْتطى فارِسها أمْس خُلاء[2]

فهي والغيظُ مَرى أشداقها تعرِكُ اللُّجمَ وتجترُّ الغُثاء[3]

واحتواها رهَجُ الحربِ فما تُبصِرُ الأرضَ عُتُوّاً وازدهاء

من على صهوتها يمنحُها شرفَ "الفارس" عزماً وفَتاء

******

يا عروسَ "الفُلغِ" والفلغا دمٌ ساءت البلوى فأحسنت البلاء

صُبغَ "الدونُ" دماءين هُما بُعدُ بين الرجسِ والطهرِ التقاء

وجرت أمواجُه حاملةً فوقها الضدّينِ صُبحاً ومساء

---

(١) العِتاق: جمع عتيق: الفرس النجيب.

(٢) الوَدَجان: عرقان في العنق.

(٣) مرى: من مَرى الضرع، أي احتلَبه واستدرَّه.

وعلـى الجُـرفينِ "عظمـان" همـا رمـزُ عهـدَيْنِ انحطاطـاً وارتقـاء

يـا ابنـةَ النهـرين دومـي شَـبَحاً لقـــويٍّ وضـــعيفٍ يُـــتراءى

للمُهيـــنينَ عِقابـــاً وجَـــزاء والمُهـــانين انتفاضـــاً وإبـــاء

كنـتِ أسمـى مَـثلاً مـن ظَفَـرِ لم تَلـدهُ خطـطُ الحـربِ دهـاء

غُلِـبَ الغالـبُ فيـه وانثنـى الطـ ــوقُ ـ كالحبل ـ على الطوق انثناء

كنـتِ رمـزاً أَلْهـمَ الجيـلَ الفـداء وهَـدى الأعقـابَ مـا شـاءت وشـاء

******

حـسِبوا أمـرِكِ مـا قـد عُـوِّدوا صَـعقَ الحـربِ اتقـاداً وانطفـاء

وابتـــداءً مــن حديـــدٍ ودمٍ يُمهَـرُ الفـتحُ بـه ثـم انتهـاء

واستجاشـوا فيلـقَ المـوتِ علـى ظمـأ للـدم منَّـوه ارتـواء

ومـضوا فيمـا أرادوا خطـوةً أوشـك اليـأسُ بهـا يمحـو الرجـاء

أوجـف الغـربُ علـى وطأتِهـا وأمالـت كلكَـلَ الـشرقِ فنـاء[1]

---

(١) وجف: اضطرب.

وتلــــوت جـــيرةٌ طمَّاحـــــةٌ		أفنـــــاءً تَتَلقَـــــى أم بقــــاء؟
حملـــــت حاضـــرَها واثقــــةً		أنَّ في مــــــستقبلٍ آتٍ عـــــزاء
وانـــــبرى التـــاريخُ في حيْرتِـــهِ		أأمامـــــــاً يتخطّـــــــى أم وراء؟
وســــرت أنبـــاءُ سُــوءٍ تـــدّعي		أن ريحـــاً تُنـــذِرُ الـــدنيا وبـــاء
حُلُـــمٌ حلـــوٌ مُمـــرٌّ مـــؤنسٌ		مُــوحشٌ ســرَّ بمــا جــاء وســاء
طـــافَ بـــالكونِ فـــأغفى أهلُـــه		تعـــــساءً وأفـــــاقوا ســـــعداء

******

فــــإذا العِــــزَّةُ في عليائهــــا		تتـــضرّى فتـــدوسُ الكبريـــاء
وإذا الأنقــــاضُ في كُرْبتهــــا		تُفْعِـمُ المكـروبَ كـالرَّوض شـذاء
وإذا المُـــنقَضُّ مـــن أحجارهـــا		لمـــحُ الـــنجمِ تعـــالى فأضـــاء
وإذا الطـــــاغوتُ في أعراســــــه		يمـــلأُ الـــدنيا نحيبـــاً وبكـــاء
أنـــتِ أمليـــتِ علـــى تاريخـــه		طافحـــاً بـــالكِبر ذُلاًّ واختـــذاء

ومحـــوتِ العُجْـــبَ مـــن أســـطاره		ومـــلأتِ الـــصَّلفَ المحـــضَ ازدراء
وصـــــفعتِ الـــــدنَّ في يافوخِـــــهِ		صـفعةً لم تُبْـقِ خَمْـراً وانتـشاء
حــسبُ مــن ضــاقت ثنايــاكِ بــه		أنَّـه يبغـي ـ فـلا يَقـوى ـ النَّجـاء
وكفـى المُحتـلَّ هَوْنـاً أن يُـرى الـ ـــ		آســـرون الغُلـــبُ منـــه أُسَـــراء
نحـنُ أهـلَ الأرض لـو نقْـوى وفـاء		لرفعنـــاكِ علـــى الأرض سمـــاء
لجعلنـــا كـــلَّ عـــينٍ ـــ مثلَمـــا		كـــلُّ قلـــبٍ ـــ تـــتملاّكِ اجـــتلاء

******

نِعْـــمَ مـــا أســـدَتْ يـــدٌ آثمـــةٌ		كـشفت عـن وجهـكِ الحُـرِّ غطـاء
عاصـــفٌ مـــرَّ فجلّـــى وانجلـــى		بـــدت الـــشمسُ بـــه أبهـــى ســـناء
وضُـحَ الحـقُّ الـذي طـال خَفـاء		وتـــولى زَبَـــدُ الكِـــذبِ جُفـــاء
وحّـــدَ العـــدلُ شـــعوباً خُلطـــاء		عَمـــروا الأرضَ وعاشـــوا خلـــصاء
وجـــــدوا في تربـــــةٍ تجمعُهـــــمْ		كـلَّ مـا يُطلـبُ في الخُلْـدِ اشـتهاء

ورأوا في الـــسّلمِ دَينـــاً يُقْتَـــضى ورأوا في الحـــربِ للــدَّينِ اقتــضاء
أترجــــى ـــــ أن تنجــــي وطنــــاً مــن يــد المــوت ــ جنــوداً فقــراء
إنَّ للحـــــربِ رجـــــالاً ليـــــتَهمْ خبّرونــــا أنَّ للحــــرب نــــساء
وغيـــــوراتٍ أبــــى تاريخُهـــــا أن تُـــرى دون الغيـــورينَ غَنـــاء
زانهـــا الطهـــرُ رُواءً وارتمــــتْ في مُثـــار النقـــعِ فـــازدادت رُواء
ذادتِ الأمُّ عــــن البيــــتِ وَقـــاء وارتمــى الطفــلُ علــى الأُمِّ افتــداء
وتعـــزَّت حـــين أخلـــت طُنفـــا لم تَــصُنْهُ، أنَّهــا صــانت فِنــاء[1]
"أُمَّ غــوركي" ليــت عنــدي وحيَــه لأوفي (بنتَـــك) اليـــومَ الثنـــاء
لـــو يعـــود اليـــومَ حيّـــاً لـــرأى مثلَهـــا ألْفـــاً تهِـــزّ البُلغـــاء
بـــل ولـــولا أن غـــوركي أمـُّــهُ مثـــلُ هـــذي لم يبُـــزَّ النبغـــاء

******

(١) الطنف: افريز الحائط أو ما أشرف من البناء خارجاً.

يــا "تولــستوي" ولم تــذهبْ سُــدىً ثـــورةُ الفكـــر ولا طـــارت هَبـــاء
يـــا ثريّـــاً وهـــبَ النـــاسَ الثـــراء قُـــمْ تـــرَ النـــاسَ جميعـــاً أثريـــاء
قُـــمْ تَجِـــدهم مـــالِكي غَلَّـــتهمْ مَـن علـى عهـدِك كـانوا الأُجـراء
هكـــذا (الفكـــرةُ) تزكـــو ثَمَـــراً إن زكـتْ غرسـاً، وإن طابـت نَمـاء

******

قـد محـصتَ القـولَ حقـاً وادِّعـاء كلِـمٌ يخـــترقُ الـــسمعَ ســـواء
ووجـــدتَ النـــاسَ مـــن جهلِهـــمُ لا يَميـــزون ثُغـــاءً ورُغـــاء[1]
اســـتُغلوا فهُـــمُ مـــن يأسِـــهمْ لا يكـــادون يَعـــون الأنبيـــاء
فحملــت "البعــثَ" بــاليُمنى لَهــم وعلـــى اليُـــسرى هنـــاءً ورخـــاء
وشـــجبتَ الرفـــقَ والرحمـــةَ مـــن نفـــرٍ ليـــسوا بحـــقٍّ رُحَمـــاء
ينـــشُدون النـــاسَ أحـــراراً وهـــم مـــلأوا البيـــتَ عبيـــداً وإمـــاء
وكَـــسَوا كلـــبَهُمُ الخـــزَّ ومِـــنْ حـــولِهمْ يلتحـــفُ الجمـــعُ العـــراء

(١) الثغاء: صوت الشاة والرغاء للإبل.

ووجـــدت الــــذئبَ في حالاتــــهِ رُبَّمــا رافـــقَ مِعـــزاةً وشـــاء[1]

قـد يكـون الكـذبُ مفـضوحاً هُـراء ويكــون الــصدقُ مدسوســاً وبــاء

ويكــون الحــقُّ ــ مــا بينَهمــا ــ بــاطلاً، والطــالحونَ الــصُلحاء

******

يــا ابنــةَ "النهــرين" هــذا نَــسَبٌ مــن وَلاءٍ لــو تقبَّلــتِ الــولاء

بَعُــدَ المَرْمــى بمــا اســتهدفتهُ واختــذى الــسهمُ فقــصَّرتُ عيــاء

وارتمــى الحِـسُّ علــى الحـسِّ فمـا يــستطيعُ اللفــظُ للــوعي أداء

ومــن الظُلــمِ ــ الــذي تأبَيْنَــه ــ أن تــسومي المُعجــزاتِ الــشعراء[2]

عاطفــاتٌ حُــوَّمٌ عاجــت علــى أبْحُــرِ الــشعر فردَّتهــا ظمــاء

وهــي مــا كانــت لتُــدلي سـبباً لــك، لــولا أنَّهــا كانــت بَــراء

لم تُثِرهــا نــزوةُ الــنفس، ولم يَزهها العُجْبُ ولم تنبِضْ ريـاء

جُــلُّ مــا يُـسعِفُني الــشعرُ بــه أن يلبِّــي "الفــمُ" للقلــبِ نــداء

---

(١) الشاء: جمع شاة.

(٢) المعجزات: ما يعجز.

أبو العلاء المعري

ألقيت في مهرجان ذكرى أبو العلاء المعري، الذي أقامه المجمع العلمي العربي بدمشق، وكان الشاعر ممثلاً للعراق.

نشرت في جريدة "الرأي العام"، العدد ١١٢١ في ٥ تشرين الأول ١٩٤٤.

قِـفْ بـالمَعرَّةِ وامسَحْ خَـدَّها التَّرِبـا
واستَوحِ مَـنْ طَوَّقَ الدُّنيا بمَـا وَهَبـا(١)

واستَوحِ مَـنْ طبَّبَ الدُّنيا بحكْمَتِـهِ
ومَـنْ علـى جُرحها مِـن رُوحه سَكَبا

وسائلِ الحُفـرةَ المرموقَ جانِبُها
هـل تبتَغي مَطْمَعـاً أو ترتجـي طلَبـاً؟

يـا بُـرجَ مفْخَـرةِ الاجـداث لا تهِـني
أنْ لم تُكـوني لأبـراج السَّما قُطُبـا

فكـلُّ نجـمٍ تمنَّـى في قَرارتِـه
لـو أنَّـه بشُعاعٍ منـكِ قـد جُـذبا

---

(١) الترب (بكسر الراء): الذي يكسوه التراب.

والمُلْهَـمَ الحـائرَ الجَبَّـارَ، هـل وَصَـلتْ
كَـفُّ الـرَّدى بحيـاةٍ بَعْـدَه سَـببا[1]؟

وهـل تَبـدَّلتَ رُوحـاً غـيرَ لاغبـةٍ
أم ما تـزال كـأمسٍ تـشتكي اللَّغَبـا[2]؟

وهـل تخبَّـرْتَ أنْ لم يـألُ مُنْطلـقٌ
مـن حُـرِّ رأيـكَ يَطْـوي بعْـدكَ الحقَبـا[3]؟

أم انـتَ لا حِقبـاً تـدري، ولا مَقَـةً
ولا اجتـواءً، ولا بُـرءاً، ولا وصَـبا[4]؟

وهـل تـصَحَّحَ في عُقْبـاكَ مُقْـترحٌ
ممّـا تفَكـرتَ، أو حـدَّثتَ، أو كُتِبـا[5]؟

(١) الملهم منصوبة "بسائل" مضمرة.

(٢) اللاغبة: المتعبة.

(٣) لم يأل أي لم ينفك ولم يبرح.

(٤) المِقة: الحب. والاجتواء: البغض.

(٥) تفكرت: بمعنى فكرت.

نَــــوِّرْ لَنـــــا، إنَّنـــــا في أيِّ مُـــــدَّلجٍ
ممَّـــا تَـــشكَّكْتَ، إنْ صِــدقاً وإنْ كـــذبا[1]

"أبـا العــلاء"، وحتَّــى اليـومِ مـا بَرِحــتْ
صَـنَّاجةُ الـشّعر تُهـدي المـترفَ الطَّربـا[2]

يَـــستنزلُ الفكـــرَ مــــن عَليـــا مَنازلـــهِ
رأسٌ ليمـــــسحَ مــــن ذي نعمـــــةٍ ذنَبـــا

وزُمـــــــرةُ الأدبِ الكـــــابي بزُمرتـــــهِ
تفرَّقـــتْ في ضَـــلالاتِ الهـــوى عُـــصَبا

تَـــصيَّدُ الجـــاهَ والألقـــابَ ناســـيةً
بـــأنَّ في فكــــرةٍ قُدســـــيَّةٍ لقبـــــا

وأنَّ للعبقـــــريّ الفـــــذِّ واحـــــدةً
إمَّـــا الخُلـــودَ وإمَّـــا المـــالَ والنَّـــشبا

مـــن قبـــلِ ألـــفِ لَوَانَّـــا نبتغـــي عِظـــةً
وعَظْتنَـــا أنْ نـــصونَ العلـــمَ والأدبـــا

******

(١) المُدلج: السائر في آخر الليل خاصة.

(٢) الصنج: من آلات الطرب وصناجات الشعر المغنون به والمرققون إياه.

علـــى الحـــصيرِ... وكـــوزُ المـــاء يَرفــدُه

وذِهنُـــــه.. ورفـــــوفٌ تحمِـــــلُ الكتبـــــا

أقـــــامَ بالـــــضَّجَّةِ الـــــدُّنيا وأقعـــــدَها

شـــيخٌ أطـــلَّ عليهـــا مُـــشفقاً حَـــدِبا

بَكـــى لأوجـــاعِ ماضـــيها وحاضِـــرها

وشـــامَ مُـــستقْبلاً منهـــا ومرتقَبـــا

وللكآبـــــةِ ألـــــوانٌ، وأفجعُهـــــا

أنْ تُبـــصرَ الفيلـــسوفَ الحُـــرَّ مكتئِبـــا

تنـــاولَ الـــرثَّ مـــن طبـــعٍ ومُـــصطلحٍ

بالنقـــدِ لا يتـــأبّى أيَّـــةً شـــجبا

وألهـــمَ النـــاسَ كـــي يَرضَـــوا مغبَّـــتهم

أن يُوسـعوا العقـلَ ميـداناً ومُـضطَربا[1]

وأن يمـــدُّوا بـــه في كـــلِّ مُطَّـــرحٍ

وإنْ سُـقوا مـن جَنـاه الويـلَ والحربـا

---

(١) المغبة: العاقبة.

لِثــــورةِ الفكـــــرِ تـــــأريخٌ يحـــــدّثُنا

بـــأنَّ ألـــفَ مــــسيحٍ دونَهـــا صُـــلبا

إنَّ الــــذي ألهَـــبَ الأفـــلاكَ مِقولُـــه

والــدَّهر ... لا رَغَبـاً يرجــو ولا رَهَبـا..

لم يــنسَ أنْ تـشمَلَ الأنعـامَ رحمتُـهُ

ولا الطيـــور .. ولا أفراخَهـــا الزُغُبـــا

حَنـا علـى كـلِّ مغـصوبٍ فـضمَّده

وشـجَّ مَـنْ كـان، أيّـاً كـان، مُغتـصبا

سَـلِ المقـاديرَ، هـل لا زلـتِ سـادرةً

أمْ أنـتِ خجلـى لِمـا أرهقتـهِ نـصَبا؟

وهـل تعمَّـدتِ أنْ أعطيـتِ سـائبةً

هـذا الـذي مـن عظـيمٍ مثلِـه سُـلبا

هـذا الـضياءَ الـذي يَهـدي لِمكْمَنِـه

لِـصّاً ويُرشـدُ أفعـى تنفُـثُ العَطَبـا

فـإنْ فَخَـرتِ بمـا عوَّضـتِ مـن هبـةٍ

فقـد جنيـتِ بمـا حمَّلتـهِ العـصَبا

*****

تلمَّـــسَ الحُــــسنَ لم يمــــدُدْ بمُبــــصرةٍ
ولا امتَـــــرى دَرَّةً منهـــــا ولا حَلبـــــا[1]

ولا تنــــاولَ مــــن ألوانهـــــا صُــــوراً
يَــــصُدُّ مبتعِـــــدٌ مــــنهنَّ مُقتربـــــا

لكــــنْ بأوســــعَ مــــن آفاقهــــا أمــــداً
رَحْبــــاً، وأرهــــفَ منهـــا جانبــــاً وشَـــبا

بعــــاطفٍ يتبنَّـــــى كــــلَّ معــــتلِجٍ
خفَّاقـــــهُ ويُزكّيـــــهِ إذا انتـــــسبا[2]

وحاضــــنٍ فُـــزَّعَ الأطيـــافِ أنزلهـــــا
شِـــعافَه وحَباهــــا مَعقــــلاً أشِـــبا

*****

رأسٌ مــن العَـصَبِ الـسامي علـى قَفَـصٍ
مــــن العظــــام، إلى مهزولــــةٍ عُـــصبا

---

(١) امترى: احتلب.

(٢) المقصود بـ "عاطف" هنا القلب وبـ "معتلج" ما يخالجه من العواطف.

أهـــوى علـــى كُـــوَّةٍ في وجهـــهِ قـــدرٌ

فـــسَدَّ بالظُلمـــةِ الثُقـــبينِ فاحتجبـــا[1]

وقـــال للعاطفـــاتِ العاصـــفاتِ بـــهِ

ألآنَ فالتمـــسي مـــن حُكْمـــهِ هربـــا

ألآنَ يـــشربُ مـــا عتَّقـــتِ لا طَفَحـــاً

يَخـــشى علـــى خـــاطرٍ منـــه ولا حَببـــا

ألآنَ قـــولي إذا استوحـــشتِ خافقَـــه

هـــذا "البـــصيرُ" يُرينـــا آيـــةً عَجبـــا

هـــذا "البـــصيرُ" يُرينـــا بـــين مُنـــدرسٍ

رثِّ المعـــالم، هـــذا المرتَـــعَ الخـــصِبا[2]

******

---

(١) الكوة إشارة إلى دائرة العين ومركزها، والثقبان هما فتحتا العينين.

(٢) مندرس رث المعالم: يراد به أدبم الوجه المتأثر بانطماس العينين. والمرتع الخصب: يراد به عقل أبي العلاء المعري وروحه.

"زنجيَّـــةُ الليـــلِ" تَـــروي كيـــف قلَّـــدها

في عُرســـها غُـــرَرَ الأشـــعار.. لا الـــشُهُبا[1]

لعـــلَّ بـــينَ العَمـــى في ليـــلِ غُربتـــه

وبـــين فحمَتِهـــا مـــن أُلفَـــةٍ نـــسبا

و"ســـاهرُ الـــبرقِ" والـــسُمَّارُ يـــوقِظهم

بـالجزعِ يَخفـق مـن ذكـراه مُـضطربا[2]

و"الفجـرُ" لـو لم يلُـذْ بالـصبح يَـشربه

مـــن المطايـــا ظِمـــاءً شُـــرَّعاً شُـــربا[3]

والـــصبحُ مـــا زال مُـــصفرّاً لمقرَنِـــه

في الحُسْن بالليـل يُزجـي نحـوه العتبـا[4]

******

(١) البيت إشارة إلى بيت أبي العلاء المشهور:

لــيلتي هــذه عــروس مــن "الــزنج" ... عليهـــا قلائـــد مـــن جمـــان

(٢) إشارة إلى مطلع قصيدته الرائية المشهورة أيضاً:

يـا "سـاهر البراق" أيقـظ راقـد الـسمر ... لعــل بــالجزع أعوانــاً علــى الــسهر

(٣) إشارة إلى بيته وهو أجمل وأرق ما سمع في وصف تبلج الصباح:

يكـــاد الفجـــر تـــشربه المطايـــا ... وتمـــلأ منـــه أوعيـــة شـــنان

(٤) إشارة إلى بيت له من قصيدته التي مر ذكر البيت السابق منها وهو:

رب ليـل كأنـه "الـصبح" في الحـسن ... وإن كـــان أســـود الطيلـــسان

والبيتان من قصيدته الشهيرة التي يقول في مطلعها:

"عللانـــي فـــإن بـــيض الأمـــاني ... فنيـــت والزمـــان لـــيس بفـــان"

يـــا عاريـــاً مــــن نَتـــاجِ الحُـــبِّ تكرمـــةً
وناســـــجاً عَفَّـــــةً أبـــــرادَهُ القُـــــشُبا

نعــوا عليــكَ ــ وأنــت النــورُ ــ فلــسفةً
ســـــوداءَ لا لـــــذَّةً تبغـــــي ولا طَربـــــا

وحمَّلــوكَ ـــ وأنـــت النـــارُ لاهبـــةً ـــ
وِزرَ الـــذي لا يُحـــسُّ الحُـــبَّ ملتهِبـــا

لا موجـــةُ الـــصَّدرِ بالنهـــدينِ تدفعـــه
ولا يَـــشقُّ طريقـــاً في الهـــوى سَـــربا

ولا تُدغـــــدغُ منــــــه لـــــذّةٌ حُلُمــــاً
بـــل لا يُطيـــقُ حـــديثَ اللـــذَّةِ العـــذِبا

حاشــاك، إنَّــكَ أذكــى في الهــوى نفَــساً
سَـــمْحاً، وأســـلسُ مـــنهمْ جانبـــاً رطِبـــا

لا أكـــــذبنَّكَ إنَّ الحُـــــبَّ مـــــتَّهمٌ
بـــالجَور يأخـــذ منَّـــا فـــوقَ مـــا وَهَبـــا

كـــم شَـــيَّعَ الأدبُ المفجـــوعُ مُحتـــضَراً

لــدى العيــونِ وعنــدَ الــصدر مُحتَــسَبا[1]

صَـــرعى نَـــشاوى بـــأنَّ الخَـــودَ لُعبـــتُهم

حتـــى إذا اســـتَيقظوا كـــانوا هُـــمُ اللُّعبـــا

أرتهُـــمُ خـــيرَ مـــا في الـــسّحْرِ مـــن بُـــدءٍ

وأضـــمرتْ شَـــرَّ مـــا قـــد أضـــمرتْ عُقبـــا

******

عـــانَى لَظَـــى الحُـــبِّ "بـــشَّارٌ" وعُـــصبتهُ

فهـــل ســـوى أنَّهـــم كـــانوا لـــه حطَبـــا

وهـــل سِـــوى أنهـــم راحـــوا وقـــد نـــذروا

للحـــبِّ مـــا لم يَجـــبْ مـــنهم ومـــا وَجَبـــا

هـــل كنـــتَ تخلـــدُ إذ ذابـــوا وإذ غَـــبرُوا

لـو لم تـرُضْ مِـن جماحِ الـنفس مـا صَعُبا

تـــــأبى انحــــلالاً رســـــالاتٌ مقدَّســـــةٌ

جـــاءت تقـــوِّمُ هـــذا العـــالَمَ الخَربـــا

******

(١) المحتضر: من أدركه الموت فأشرف عليه. والمحتسب: المفقود بالموت ويقال ذلك للكبير. فإن كان المفقود صغيراً قيل فيه "مفترط" بفتح الراء.

يـــا حـــاقِرَ النبـــعِ مزهُـــوّاً بقوَّتـــهِ

وناصـــراً ڤي مجـــالي ضـــعفِهِ الغَرَبـــا[1]

وشـــاجِبَ المـــوت مـــن هـــذا بأســـهمهِ

ومُـــــستمِنّاً لهـــذا ظلَّـــهُ الرَّحِبـــا

ومُحــــرِجَ المُوسِـــرِ الطـــاغي بنعمتـــهِ

أنْ يُـــشرِكَ المُعـــسِرَ الخـــاوي بمـــا نهبـــا

والتَّـــــاجُ إذ تتحـــــدَّى رأسَ حاملـــــهِ

بـــأيِّ حـــقٍّ وإجمـــاعٍ بـــه اعتـــصبا

******

وهـــؤلاء الـــدُّعاةُ العـــاكفونَ علـــى

أوهـــامهم، صـــنماً يُهدونـــه القُرَبـــا[2]

الحـــابطونَ حيـــاةَ النـــاسَ قـــد مَـــسخوا

مـــا ســـنَّ شَـــرْعٌ ومـــا بـــالفطرةِ اكتُـــسبا

---

(١) النبع: شجر يعرف بقوته وتتخذ منه السهام والقسي. والغرب: شجر معروف بسهولة انكساره. ومعنى البيت الإشارة إلى شجب المعري القوة بكل مظاهرها، واحتضانه الضعفاء من كل جنس.

(٢) يريد بهم المشعوذين باسم الدين والذين يروجون للبدع وللخرافات ويضيقون آفاق الحياة على الجماهير.

والفـــــاتلونَ عثانينـــــاً مُهــــــرّأةً

ســـاءتْ لمحتطِـــبٍ مَرعـــى ومُحتطَبـــا[1]

والمُلـــصِقونَ بعـــرش الله مـــا نــسجت

أطمـــاعهُم: بـــدَعَ الأهـــواءِ والرِّيبـــا

والحـــاكمونَ بمـــا تُـــوحي مطـــامعهُم

مـــؤوِّلينَ عليهـــا الجـــدَّ واللَّعبـــا

علـــى الجلـــودِ مـــن التـــدليس مَدرعـــةٌ

وفي العيـــونِ بريـــقٌ يخطَـــف الـــذهبا

مـــا كـــان أيُّ ضـــلالٍ جالبـــاً أبـــداً

هـــذا الـــشقاء الـــذي باســـم الهُـــدى جُلبـــا!

أوسَـــعْتَهم قارصـــاتِ النقـــدِ لاذعـــةً

وقلـــتَ فـــيهم مَقـــالاً صـــادقاً عجبـــا

"صـاحَ الغـرابُ وصـاحَ الـشيخُ فالتبـستْ

مـــسالِكُ الأمـــر: أيٌّ منهمـــا نعبـــا"

*****

---

(١) العثانين: جمع عثنون بالضم: اللحية.

أجللـــتُ فيـــك مـــن الميـــزات خالـــدةً
حُريَّـــةَ الفكـــرِ والحرمـــانَ والغـــضبا
مجموعـــةً قـــد وجـــدناهُنَّ مُفـــرَدةً
لـــدى ســـواكَ فمـــا أغنيننـــا أرَبـــا
فـــربِّ ثاقـــبِ رأيٍ حـــطَّ فكرتَـــه
غُـــنمٌ فـــسَفَّ .. وغطَّـــى نورَهـــا فخبـــا
وأثقلـــتْ مُتـــعُ الـــدُّنيا قوادِمـــهُ
فمـــا ارتقـــى صُـــعُداً حتّـــى ادَّنـــى صَـــبَبَا
بَـــدا لـــه الحـــقُّ عُريانـــاً فلـــم يَـــرهُ
ولاحَ مقتـــلُ ذي بغـــيٍ فمـــا ضَـــربا
وإنْ صـــدقتُ فمـــا في النـــاس مُرتكبـــاً
مثـــلُ الأديـــب أعـــانَ الجـــورَ فارتكبـــا
هـــذا الـــيراعُ، شـــواظُ الحـــقِّ أرهفـــه
ســـــيفاً وخـــــانعُ رأيٍ ردَّه خـــــشبا
ورُبَّ راضٍ مـــن الحرمـــان قِـــسمَته
فـــبرِّرَ الـــصبرَ والحرمـــانَ والـــسغبا

أرضـــى، وإنْ لم يـــشأ، أطمـــاعَ طاغيـــةٍ
وحـــالَ دونَ ســـوادِ الـــشعب أن يثبـــا
وعـــوَّضَ النـــاسَ عـــن ذُلٍّ ومَتربَـــةٍ
مِـــنَ القناعـــةِ كنـــزاً مائجـــاً ذهبـــا!!
جـــيشٌ مـــن المُثُـــلِ الـــدُّنيا يَمُـــدُّ بـــه
ذوو المواهـــبِ جـــيشَ القـــوَّةِ اللَّجبـــا

******

آمنـــتُ بـــاللهِ والنـــورِ الـــذي رسمَـــتْ
بـــه الـــشرائعُ غُـــرّاً منهجـــاً لَحِبـــا
وصُـــنتُ كـــلَّ دُعـــاةِ الحـــقِّ عـــن زَيـــغٍ
والمُـــصلحينَ الهـــداةَ، العُجْـــمَ والعَرَبـــا
وقـــد حَمِـــدتُ شَـــفيعاً لـــي علـــى رَشَـــدي
أُمّـــاً وجـــدتُ علـــى الإســـلامِ لـــي وأبـــا
لكـــنَّ بـــي جَنَفـــاً عـــن وعـــي فلـــسفةٍ
تقـــضي بـــأنَّ البرايـــا صُـــنِّفتْ رُتَبـــا[1]
وأنَّ مِـــن حِكمـــةٍ أنْ يجـــتني الرُّطبـــا
فـــردٌ بجَهـــد ألـــوفٍ تعلـــكُ الكَرَبـــا[2]

(١) الجنف: الميل والانحراف.

(٢) الكرب: أصول، سعف النخل.

أخي جعفر

ألقاها الشاعر مساء يوم ١٤ شباط ١٩٤٨ في الحفل الكبير الذي أُقيم في جامع الحيدرخانة في بغداد، لمناسبة مرور سبعة أيام لاستشهاد أخيه محمد جعفر الجواهري وإخوانه من الشهداء في معركة الجسر الباسلة يوم ٢٧ كانون الثاني عام ١٩٤٨، ثورة على معاهدة "بورتسموث"... وكان يوم تشييع جنازته يوماً لم تشهد بغداد مثله في تاريخها الحديث.

نشرت في جريدة "الرأي العام"، العدد ١٨٣٦ في ١٥ شباط ١٩٤٨.

أتَعلَـــــمُ أمْ أنـــــتَ لا تَعلَـــــمُ   بــأنَّ جِــراحَ الــضحايا فــمُ

فَــمٌ لــيس كالمُــدعي قولَــةً   ولــيس كــآخَرَ يَــسترحِم

يــصيحُ علــى المُــدْقِعينَ الجيــاع   أريقــوا دمــاءَكمُ تُطعَمــوا[1]

ويهْتــفُ بــالنَّفَر المُهطِعــين   أهِينــوا لِئــامكمُ تُكرمــوا[2]

*****

أتعلَــــمُ أنَّ رِقــــابَ الطُغــــا   ــة أثقلَهــا الغُــنمُ والمــأثَم

وأنّ بطــونَ العُتــاةِ الــتي   مِن السُحتِ تَهضمُ ما تهضم[3]

وأنَّ البغــيَّ الــذي يــدَّعي   مــن المجد مـا لم تَحُـزْ "مـريم"

---

(١) المدقع: الفقير المعدم.

(٢) المهطع: الذليل.

(٣) السحت: المال الحرام.

سَـــتَنْهَدُّ إن فـــارَ هـــذا الـــدمُ وصــوَّتَ هــذا الفــمُ الأعجــم[1]

فيـا لـكَ مِـن مَـرهمٍ مـا اهتـدى إليـــه الأُســـاة ومـــا رهَّمـــوا

ويـــا لـــكَ مـــن بلـــسمٍ يُـشتَفى بـــه حـــينَ لا يُرتجـــى بَلـــسم

ويـــا لـــكَ مـــن مَبـــسمٍ عـــابسٍ ثغـــورُ الأمـــاني بـــه تَبـــسِم

أتعلـــمُ أنّ جِـــراحَ الـــشهيد تَظَـــلُّ عـــن الثـــأر تـــستفهم

أتعلـــمُ أنّ جِـــراحَ الـــشهيد مـــن الجُـــوعِ تَهـضمُ مـا تَلـهم

تَمُـــصُّ دمـــاً ثُـــم تبغـــي دمـــاً وتبقـــى تُلِـــحُّ وتـــستطعم

فقُـــلْ للمُقـــيمِ علـــى ذُلّـــهِ هجينـــاً يُـــسخَّرُ أو يُلجَـــم

تَقَحَّـمْ، لُعِنْـتَ، أزيـزَ الرَّصـاص وجَـرِّبْ مـن الحـظِّ مـا يُقـسم

وخُضْها كما خاضَها الأسبقون وثَـــنِّ بمـــا افتـــتحَ الأقـــدم

فإمَّـا إلى حيـثُ تبـدو الحيـاة لِعينيْـــكَ مَكْرُمـــةً تُغْـــنَم

وإمَّـــا إلى جَـــدَثٍ لم يكُـــنْ ليفـــضُله بيتُـــكَ المُظلـــم

******

---

(١) ستنهد: الفاعل يعود على الأشياء في الأبيات الثلاثة السابقة.

تَقَحَّـــمْ، لُعِنْـــتَ، فمــا ترتَجـــي مِــن العــيش عــن وِرده تُحــرم؟

أأوجـــعُ مِـــن أنَّـــك المُـــزدرى وأقتـــلُ مـــن أنَّـــك المُعـــدِم؟

تقحَّــمْ فمــنْ ذا يَخــوضُ المنــون إذا عافهـــا الأنكـــدُ الأشـــأم؟

تقحَّــمْ فمــن ذا يلــومُ الــبطين إذا كـــان مثلُـــكَ لا يَقْحَــم؟

يقولــون مَــن هــم أولاءِ الرَّعــاعُ فـــأفهِمْهُمُ بـــدَمٍ مَـــنْ هُـــم

وأفهِمْهُـــمُ بـــدمٍ أنَّهـــمْ عَبيـــدُكَ إنْ تَـــدعُهُمُ يَخـــدُموا

وأنَّـــك أشـــرفُ مـــن خيرِهـــمْ وكعبُـــك مِـــن خـــدّهِ أكـــرم

******

أخـــي "جعفـــراً" يـــا رُواءَ الربيـــع إلى عَفَـــنٍ بـــاردٍ يُـــسلَم[١]

ويـــا زَهـــرةً مـــن ريـــاض الخُلـــود تَغوَّلهـــا عاصـــفٌ مُـــرزِم[٢]

ويـــا قَبـــساً مـــن لهيـــبِ الحيـــاة خَبـــا حـــين شـــبَّ لـــه مَـــضْرَم[٣]

ويـــا طلعـــةَ البِـــشر إذ ينجلـــي ويـــا ضـــحكةَ الفجـــر إذ يَبـــسِم

لَثَمْـــتُ جراحـــكَ في "فتحـــةٍ" هـــي المُـصحفُ الطُهـرُ إذ يُلـثَم[٤]

---

(١) العفن البارد: يراد به هنا القبر . ورواء الربيع: بهاؤه ولطفه.

(٢) المرزم: المرنان الصخاب.

(٣) مضرم: فاعل لشب وهو مصدر ميمي بمعنى الضرام كأنه يقول: شب ضرامه.

(٤) الفتحة: هنا إشارة إلى فوهة الجرح المفتوحة.

وقبَّلْتُ صدرَك حيثُ الصَّميم مِن القلب، مُنْحرِفاً، يُخْرَم

وحيثُ تُلوذُ طيورُ المُنى به فهيَ، مُفزعَةً، حُوَّم

وحيثُ استقرَّت صِفاتُ الرجال وضَمَّ معادِنَها مَنجَم[1]

ورَبَّتُّ خدّاً بماءِ الشباب يرفُّ كما نوّر البُرعُم[2]

ومسِّحتُ مِن خُصَلٍ تَدَّلي عليه كما يَفعلُ المُغرم

وعلَّلتُ نفسي بذوبِ الصديد كما علَّلتْ وارداً "زمزم"

ولقَّطتُ مِن زبدٍ طافحٍ بثَغرك شهداً هو العَلْقَم[3]

وعوَّضتَ عن قُبلتي قُبلةً عَصَرْتَ بها كل ما يؤلِم

عَصَرْتَ بها الذكرياتِ التي تَقَضَّتْ كما يَحْلُمُ النُوَّم

(١) حيث استقرت صفات الرجال يراد به القلب الذي منه تنبعث عناصر القوة.

(٢) ربت بتشديد الباء أي ضرب بلطف.

(٣) البيت وما بعده إشارة إلى واقعة حال كان فيها الشاعر ينحني على أخيه وهو في الرمق الأخير ليقبله وكان من الشهيد أن قبّله هو أيضاً.

أخـــي "جعفــراً" إنّ رجــعَ الــسنيـ ــن بَعْـدك عنـدي صَـدىً مُـبْهم
ثلاثـــونَ رُحْنـــا عليهـــا معـــاً نعـــذَّبُ حِينـــاً ونـــستنعِم[1]
نُكـــافحُ دهـــراً ويستَـــسْلمُ ونُغلـــبُ طـــوراً ونَسْتَـــسْلِم

******

أخــي "جعفــراً" لا أقــولُ الخيــال وذو الثـــأرِ يَقْظـــانُ لا يَحلُـــم
ولكـــنْ بمـــا أُلهـــمَ الـــصابرون وقـــد يقـــرأُ الغيـــبَ مُـــستَلهِم
أرى أُفُقـــاً بنجيـــع الـــدماء تَنـــوَّر، واختفـــتِ الأنجـــم
وحـــبلاً مـــن الأرض يُرقـــى بـــه كمـــا قـــذفَ الـصاعدَ الـسُلَّم
إذا مـــدَّ كفّـــاً لـــه ناكـــثٌ تـــصدَّى ليقطَعهـــا مُبْـــرِم
تكـــوَّر مـــن جُثـــثٍ حولَـــهُ ضِـــخامٍ وأمجادُهـــا أضـــخم
وكفـــاً تُمـــدُّ وراءَ الحجـــاب فترسُـــمُ في الأفْـــقِ مـــا تَرسُـــم
وجـــيلاً يَـــروحُ وجـــيلاً يجـــيء ونـــاراً إزاءَهمـــا تُـــضرَم

******

(١) ثلاثون: إشارة إلى الثلاثين عاماً التي هي عمر الفقيد.

أُنبِّيــــكَ أنّ الحِمـــــى مُلْهَــــبٌ ووادِيــــه مــــن ألمٍ مُفعَــــم

ويــــا وَيْــحَ خانقــةٍ مِــن غــدٍ إذا نَفَّــسَ الغــدُ مــا يَكظــم

وأنّ الــــدماءَ الـــتي طلّهــــا مُـــدِلٌّ بـــشُرطتهِ مُعـــرم[1]

تَنَـضَّحُ مــن صــدرك المُـستطاب نزيفــــاً إلى الله يَـــــستظلِم

ســتبقى طــويلاً تَجُــرُّ الــدماء ولَـــنْ يُــبردَ الــدمَ إلاّ الــدم

وأنَّ الـــصدورَ الـــتي فلَّهــــا وأبـــدعَ! في فلِّهـــا مُجْـــرم

ونَثَّــــرَ أضــــلاعَها نَثْـــرةً شَــتاتاً كمــا صُــرِّفَ الــدرهم

سَتَحْـضُنُها مــن صُــدور الـشباب قَـــساةٌ علـــى الحـــقِّ لا تـــرحم

******

أخــي "جعفــراً" إنّ عِلــمَ الـيقين أُنبِّيـــكَ إنْ كنـــتَ تـــستعلِم

صُـرِعْتَ فحامـتْ عليـك القلـوب وخَـــفَّ لـــك المـــلأُ الأعظَــم

وسُـــدَّ الـــرُواقُ، فـــلا مَخـــرجٌ وضــاقَ الطريــقُ، فـلا مَخــرم[2]

---

(١) طل الدم: أراقه. و"المُعرم": المتجبر الذي يأخذ الناس بالظنة، وبما لم يجنوا، من فعل "أعرم".

(٢) المخرم: طريق في الجبل يريد به أي طريق.

وأبلــغَ عنــك الجَنــوبُ الــشَّمال وعــزَّى بــك المُعــرِقَ المُــشئِم[1]

وشَــقَّ علــى "الهــاتِف" الهــاتفون وضــجَّ مــن الأســطُرِ المِــرقَم[2]

تعلَّمــتَ كيــف تَمــوتُ الرجــال وكيـــف يُقـــامُ لهـــمْ مـــأتَم

وكيــف تُجــرُّ إليــك الجمــوعُ كمـــا انجـــرَّ للحَـــرمِ المُحـــرِم

******

ضــحِكتُ وقــد هَمْهَــمَ الــسائلون وشقَّ على السمعِ ما همهموا[3]

يقولـــون مِـــتَّ وعنـــد الأُســـا ـــ ةِ غـــيرَ الـــذي زَعَمـــوا مَـــزعَم

وأنـــتَ مُعـــافى كمـــا نرتجـــي وأنـــت عزيـــزٌ كمـــا تعلَـــم

ضـــحِكتُ وقلـــتُ هنيئـــاً لهـــم ومـــا لفَّقـــوا عنـــك أو رجَّمـــوا

فهـــم يبتغُـــون دمـــاً يـــشتفي بـــه الأرمـــدُ العـــينِ والأجـــذم[4]

(١) المعرق والمشئم: أي العراقي والشامي.

(٢) المرقم: القلم.

(٣) الهمهمة: الكلام الخفي.

(٤) الأجذم: المجذوم المصاب بالجذام.

دمــاً يُكــذِبُ المخلــصونَ الأبــاةُ بــــه المـــارقينَ ومـــا قــــسَّموا

وهـــم يبتغـــونَ دمـــاً تلتقـــي عليـــهِ القُلـــوبُ وتـــستَلئم[1]

إلى أنْ صَـــدَقْتَ لهـــمْ ظَـــنَّهم فيـــا لـــكَ مـــن غـــارمٍ يَغــنَم

فهـــمْ بـــك أولى فلمَّـــا نَـــزَل كجَـــذْرٍ علـــى عَـــددٍ يُقـــسم

وهـــم بـــك أولى، وإن رُوِّعـــت "عجـــوز" علـــى فلـــذةٍ تلطِـــم

وتكفُـــرُ أن الـــسما لم تعُـــدْ تُغيـــثُ حَريبـــاً، ولا تَـــرْحَم

وأُخـــتٌ تـــشُقُّ عليـــك الجيـــوب فيُغـــرزُ في صـــدرها معـــصم

تناشـــد عنـــك بريـــق النُّجـــوم لعلَّـــك مِـــن بينهـــا تـــنجُم

وتَـــزْعَمُ أنَّـــك تـــأتي الـــصَّباحَ وقــد كــذَّبَ القــبرُ مــا تَــزْعُم

لِيَـــشْمَخْ بفقـــدِكَ أنـــفُ الـــبلاد وأنفـــي، وأنفُهـــم مُـــرغم

******

أخـــي "جعفـــراً" بعُهـــود الإخـــا ـــ ء خالـــصَةً بيننـــا أُقـــسِم

وبالـــدمع بعـــدَكَ لا يَنـــثني وبـــالحُزنِ بَعـــدَكَ لا يُهـــزم

وبالبيـــتِ تغمـــرُهُ وحـــشةٌ كقـــبرك يَـــسأل هـــل تقـــدِم

وبالـصحب والأهـلِ "يـستغربون" لأنَّـــك منحـــرفٌ عـــنهُم

---

(١) تستلئم: يريد تتجمع.

يميناً لتَنهَشُني الذكريات   عليك كما يَنهش الأرقم[1]

إذا عادني شبحٌ مُفرحٌ   تصدَّى له شبحٌ مؤلِم

وأنّيَ عُودٌ بكفِّ الريا   حِ يسأل منها متى يُقصَم

أخي "جعفراً" وشجونُ الأسى   ستَصرِم حبلي ولا تُصرَم[2]

أزحْ عن حَشاك غُثاءَ الضمير   ولا تكتُمَنّي، فلا أكتُم[3]

فإنْ كانَ عندكَ مِن مَعتَبٍ   فعندي أضعافُه مَنْدَم

وإن كنتَ فيما امتُحِنَّا به   وما مسَّنا قَدَرٌ محكَم

تُخَرِّجُ عُذراً يُسلّي أَخاً   فأنت المُدِلُّ به المُنعِم

عصارةُ عُمرٍ بشتّى الصنُوف   مليءٍ، كما شُحِنَ المُعْجَم

به ما أُطيقُ دفاعاً به   وما هو لي مُخْرِسٌ مُلجِم

أسالتْ ثراك دموعُ الشباب   ونوَّر منك الضريحَ الدم

---

(١) الأرقم: الأفعى.

(٢) صرم: قطع.

(٣) الغثاء: ما يخالط الضمير من كدرة. وأزح: أي صرح.

عبد الحميد كرامي

ألقاها الشاعر في الحفلة التي أقامتها لجنة تأبين عبد الحميد كرامي في بيروت عام ١٩٥٠.. وكان الشاعر قد لبى دعوة اللجنة إياه للاشتراك في الحفل المذكور بعد إلحاح شديد تضمنته برقيات ورسائل عديدة.. وكان للقصيدة صداها وأثرها البليغان في كل أرجاء لبنان.. ونشرتها عد صحف في بيروت، وأعادت نشرها أكثر من مرة..

كانت الوزارة القائمة، حين إلقاء القصيدة، هي وزارة رياض الصلح.. وبعد يومين استقالت الوزارة وشكلها حسن العويني.. وقد دشنت الوزارة الجديدة أعمالها ب "طرد" الجواهري من لبنان!
وللعلم فإن العويني رئيس الوزراء الجديد، والصلح رئيس لوزراء المستقيل كانا من أعضاء لجنة التأبين التي دعت الشاعر لحضوره والمشاركة فيه!

لقد أثار حادث الطرد هذا ضجة كبيرة، في لبنان والعراق ومصر.. وشاركت معظم الصحف اللبنانية في الاحتجاج الشديد على هذا الحادث..

ونكتفي، هنا، بما كتبه الدكتور "جورج حنا" في جريدة "النهار".. قال:
"لا يعيب لبنان شيء أكثر مما يعيبه تحقيره للفكر واضطهاده المفكرين. فهذا البلد الذي طالما تمنينا بأن يلصق به لقب بلد الإشعاع ما فتئ القائمون على أمره لإزالة هذا اللقب عنه.

بعد كل الاضطهادات التي استهدف لها رجال القلم والأدب والفكر الحر، تتوج الدوائر المختصة قائمتها بطردها من لبنان محمد مهدي الجواهري شاعر العرب الأكبر.

قصيدة الجواهري في حفلة المغفور له عبد الحميد كرامي لم تكن جوهرة شعرية وأدبية وحسب، وإنما كانت أجمل لوحة يرسمها فنان عن العالم العربي.

ماذا قال الجواهري، وبماذا كفر لكي يطرد من بلد بعث إليه بعشرين رجاء قبل أن يأتي إليه؟ ومن هو الذي غضب على الجواهري، لأن الجواهري ثائر على الاستعمار ودعاة المستعمرين؟.

وأي لبناني، بل أي عربي، يجرؤ على الجهر برأي مخالف لرأي الجواهري؟..

والله ما كنا نريد أن يكون طرد الجواهري من لبنان فاتحة عهد هذه الوزارة.. لقد كنّا نأمل منها غير ذلك.

بقي أن نسأل:

من الذي طرد الجواهري من لبنان؟.

بـــاقٍ ـــ وأعمـــارُ الطُّغـــاةِ قـــصارُ ـــ   مـــن ســـفرِ مجـــدكَ عـــاطرٌ مَـــوّارُ
متجـــاوبَ الأصـــداءِ نفـــحُ عـــبيره   لُطْـــفٌ. ونفـــحُ شَـــذاتِهِ إعـــصار
رفَّ الـــضميرُ عليـــه فهـــو منـــوَّرٌ   طُهـــراً كمـــا يتفـــتَّحُ النُـــوّار
وذكـــا بـــه وهَـــجُ الإبـــاء فـــردَّه   وَقْـــداً يُـــشبُّ كمـــا تُـــشبُّ النـــار
العمـــرُ عُمْـــرُ الخالـــدينَ يَمُـــدُّه   فَلَـــكٌ بطيـــبِ نثـــاهمُ دوّار(١)
يـــتمخَّضُ التـــاريخُ في أعقـــابهمْ   حَمْـــداً, وتعـــصِفُ ليلـــةٌ ونهـــار
أمـــا النُّفـــوسُ الزّاخـــراتُ عروقُهـــا   بالمُغريـــاتِ فنَـــشوةٌ وخُمـــار

*****

عبـدَ الحميـدِ وكـلُّ مجـدٍ كـاذبٌ   إنْ لم يُـصَنْ للـشعبِ فيـه ذمـارُ
والمجـدُ أن تُهـدي حياتـكَ كلـها   للنـــاسِ لا بـــرمٌ ولا إقتـــار
والمجـدُ أن يَحميْـكَ مجـدك وحـده   في النـاسِ.. لا شُـرَطٌ ولا أنـصار
والمجـدُ إشـعاعُ الـضمير لـضوئهِ   تهفـو القُلـوبُ, وتَـشْخَص الأبـصار
والمجـــدُ جبّـــارٌ علـــى أعتابـــه   تهـوي الـرؤوسُ.. ويـسقط الجبـار

*****

---

(١) النثا: الذِكر.

جانبـــتَ مزلَقَـــةَ الطُّغـــاةِ وإنهـــا بـــالوردِ تُفـــرشُ والنُـــضار تُنـــار

وســـلكتَ نهـــجَ المخلـــصينَ وإنـــه أسَـــلٌ يُخـــضَّبُ مـــن دمٍ وشِـــفار[1]

لـــو كنـــتَ تـــستامُ الحيـــاةَ رخيـــصةً وافـــاك منهـــا مغـــنمٌ وتِجـــار

ولـــو ارتـــضيتَ الحكـــم أعـــرجَ أهوجـــاً لمـــشَتْ إليـــكَ عَجولـــةً أوطـــار

جئـــتَ الـــوِزارةَ ليلـــةً ونهارهـــا فرأيـــتَ كيـــفَ تَـــرَاكمُ الأوزار

ورأيـــتَ كيـــفَ الحكـــمُ يـــشمَخُ كاذبـــاً في حـــينَ يمـــلأ دفَّتيـــهِ العـــار

ولَمـــستَ كرســـياً يُـــرَجُّ كأنـــه نعْـــشٌ يُـــدقُّ بجنبـــهِ مِـــسمار

ورأيـــتَ إذ "بـــاريسُ" شـــلَّتْ كفُّهـــا كيـــفَ اصـــطفاهُ بلنـــدنٍ نجـــار

فنفـــضتَ كفَّـــكَ مـــن حُطـــامٍ عنـــدَه يَخـــزى البنـــونَ وتخجَـــلُ الأســـفار

وخرجـــتَ موفـــور الكرامـــةِ عالِقـــاً مِـــن فـــوقِ مَفْرِقـــكَ الأغـــرِّ الغـــار

بُوركـــتِ خالـــصةَ الـــضميرِ فإنـــكِ الـــ ـــجناتُ تجـــري تحتَهـــا الأنهـــار

قـــد كـــانَ وُسْـــعَكَ أنْ تغـــالِطَ ذِمَّـــةً أو أنْ تغـــرِّرَ والهـــوى غـــرّار

---

(١) الأسل: الرماح. الشفرة: حد السيف.

وتقولُ: كنتُ وكانَ صُنعَ معاشرٍ   أعطَوا يداً للأجنبيِّ وساروا
أو أنْ تسمي "الشرَّ" يُهلكُ أمَّةً   خيراً كما يتصنَّع الأشرار
أو أنْ تجيءَ "النفعَ" وِتراً أجذماً   في حينَ تُشفعُ عندَه الأضرار[1]
حُوشيتَ ما قِيَمُ الرجال إذا ارتمى   منها الضمير وصوَّح الإيثار
لا يقدِرُ الحرمانَ مما يُشتَهَى   وُيتاحُ.. إلاّ القادةُ الأبرار
لا بُدَّ أن يَعرى ــ وإن طالَ المدى   بالناسِ ــ موهوبُ الثياب مُعار

*****

إيهٍ "كرامةُ" والقريضُ وسيلةٌ   للخيرِ لا خمرٌ ولا أسمار
يُلوى من الخيلِ الجيادِ عنانُها   حتى يُتاحَ لرَكضها مِضمار
ومزيَّة الزعماءِ أنَّ حياتَهمْ   خِصبٌ وأنَّ مماتَهم إثمار
فإذا ذَكَرْتُ بكَ البلادَ فعاذِرٌ   فهي الحبيبُ لنفسكَ المختار
عبد الحميدِ وما تزالُ كعهدِها: شَعْبٌ يُذَلُ وأُمةٌ تنهار

---

(١) الأجذم: المقطوع.

ومسلَّطونَ على الشعوبِ برغمها　　　السوطُ يدفعُ عنهمُ والنار

وصِحافةٌ صِفرُ الضميرِ كأنها　　　سِلَعٌ تباعُ، وتُشتري، وتُعار

ومُبصبصونَ كأنهم عن غيرهم　　　مِسخٌ، ومن آثامه آثار

يتهافتونَ على مواطئ أرجُلٍ　　　يُومى لهمْ بكعُوبها ويُشار

قدرٌ أناخَ على البلادِ بكلكل　　　فنبا بهِ متنٌ، وزلَّ فَقار

وغمامةٌ سوداءُ رانَ جِرانُها　　　عَنتاً فلا غيثٌ ولا إِصحار[1]

لُبنانُ يا بلدَ الصَّباحةِ تُجتلى　　　والعلمِ يُقطف، والنُّهى تُشتار[2]

يا موطِنَ الأحرارِ حينَ يَسومُهم　　　خَسْفٌ. وحينُ تُشرَّدُ الأحرار

ناغيتُ حُسنَكَ والصِّبا لي شافعٌ　　　ومسحتُ تُربَكَ والهوى ليَ دار

وأثرتَ مِن "قيثارتي" فتجاوَبتْ　　　بحفيفِ "أرْزِكَ" تلكمُ الأوتار

ومشت تُذيعُ على القوافي عطرها　　　وجمالَها الأنجادُ والأغوارُ

******

(١) ران: هيمن، وقع ولم يمكن الخروج منه. جران البعير مقدم عنقه يريد ثقل الغمامة.

(٢) تشتار: تجنى كما يجنى العسل.

حتـــى إذا زحـــمَ الـــشبابَ ولُطفَـــه ... ثِقـــلُ الحيـــاةِ تحطَّـــم القيثـــار
ونهــضتُ للمُحتــلِّ أرضَــك, بطــشُهُ ... أشِـــرٌ, وسَـــوْطُ عَذابـــه هـــدّار
ومُنعـــتُ أنْ أغــشى ربوعَــك بعــدها ... أو أنْ أزورك, و"الحبيـــبُ يـــزارُ"(١)
وظلِلـــتُ أرقُـــبُ يـــومَ يُوثَـــقُ آسِـــر ... عـــاتٍ, ويـــومَ يُفـــكُّ عنـــك إســـار
أسَـفاً فقــد أنهــتْ إلـيَّ ــ مـشوبةً ... بـالحزنِ ـ يـومَ خـلا صِـكَ الأخبـار
أهداكَـــهُ إذ فـــرَّ جحفـــلُ غاصـــبٍ ... جـــيشٌ لآخـــرَ غاصـــبٍ جـــرّار
وبــدا يُزَحــزحُ عــن سمــاكَ مــذنَّباً ... رجْـــمٌ ســـواهُ مُـــذنَّبٌ ســـيّار

******

لُبنـــانُ نجـــوى مُـــرَّةٌ وسِـــرارُ ... إنّـــا بحُكْـــمِ بَلائِنـــا سُـــمَّارُ
مـــاذا يُـــرادُ بنـــا ؟ وأيـــنَ يُـــسارُ؟ ... والليـــلُ داجٍ, والطريـــقُ عِثـــار
والــوحشُ يــربِض في الثنايــا مُنــذِراً ... والمـــــوتُ جـــــآرٌ بهـــــا زآر

(١) التضمين من بيت لجرير في زوجته.

أعُقــابُ لُبنــانٍ تــدنَّسُ وَكــرَهُ		للأجــنبيِّ قواعــدٌ ومَطــار؟
أو بحــرُهُ نَبْــعُ الفَخــارِ يــشقُّه		في كــلِّ يــومٍ مــنهمُ بحَّــار؟
أوَ فخــرُ مُنهــاضٍ الجَنــاحِ بأنــه		بجنــاحِ أقــتمَ كاســرٍ طيَّــار[1]
اليــومَ ينــزلُ عِــشَّهُ ويدوسُــه		لا الــرِّيشُ يُنجــدهُ ولا المنقــار
وغــداً يُلقَّفــهُ وينتِــقُ ريــشَه		فيمــا يلقَّــفُ أجــدلٌ جبــار[2]

******

أشــباب لُبنــانٍ يُــضامُ لأنــه		يقِـظٌ علـى عُقبـى المـصيرِ يَغـارُ؟
ألِمِـثلِهم صـاغَ القُيـونُ حَديـدَهم؟		وبنـى الـسُّجونَ لِمثلـهم مِعمـار؟[3]
هـل غيرُهـم حطـبُ الـوغى إنْ شـبَّها		بــاغٍ وعــمَّ الخــافِقَينِ أُوار؟[4]
أوَ غيرُهــم يَــسقي الثغــورَ دمــاءَه		لتمــرَّ منهــا غــدرةٌ وفَجــار
الــسوطُ ذُلٌّ لا تُقِــرُّ هوانَــه		إلاّ بــسلخِ جلودهــا الأبقــار
والـسِّجنُ لـو علمـتْ مَـن الثـاوي بـه		لتــساقطتْ ببناتِــه الأحجــار

******

---

(١) الأقتم: أغبر اللون.

(٢) الأجدل: الصقر.

(٣) القيون: جمع القين وهو الحداد.

(٤) الأوار: اللهب.

كنّـا لكُـم نعـمَ النـذير لـو أرعـوى غـاوٍ, ولـو ألـوى بـهِ إنـذار
مـا أشـبه التـاريخ, دامـي جُرحنـا كجـروحكمْ بأكفنـا نغّـار
كـانَ الغريـبُ, وكـانَ بغـيٌ سـافرٌ ولقـد يُهـوِّنُ مُنكَـراً إسـفار
جُمعـتْ بـه شـتى الـصُّفوفِ, ووُحِّـدتْ شـتى القُلـوبِ, ونامـتِ الأوغـار
وتوضـحتْ فيـه المعـالمُ لم تُـشَبْ دَجـلاً, ولم تُطمَـس بهـا الآثـار
وبـهِ تكـشَّفَ كـلُّ أربـدَ حالـكٍ داجٍ, كمـا تتكـشفُ الأقمـار!
وتمـايزتْ ـ للمـؤثرينَ نفوسَـهم والمـؤثرينَ بلادَهـم ـ أقـدار
قـد كـانَ ميـدانُ الجهـادِ يَـسوده حُكمـانِ: وَقْـدٌ جـاحمٌ, وفِـرار
كُبِّـتْ بـه الهـوجُ الهجـانُ لوجهها وحـوى الجيـادَ كريمـةً مِـضمار
وهفـا الـدَّعيُّ فلـم يُفـاخِرْ أنَّـه يعلـوهُ مـن رهَـجِ الجهـادِ غُبـار!

******

حتـى إذا لُقِحَـتْ قبيـلَ أوانهـا شـعواءُ يجهـلُ كُنهَهـا الثُـوّار
ومـضى بـوِزرٍ مُغـامرٍ ومُتـاجرٍ ومُـبررٍ شـهداؤها الأبـرار

ألقـــى لنـــا المُــستعمرونَ عِــصابةً   كانــتْ تــضُمُّ شَــتاتَهم أجحــار

مِن حاضني حكمِ الدخيلِ وناصري   ســـلطانهِ إنْ عـــزَّه الأنـــصار

ممــن بــلا "لــورانسُ" صِـدقَ ولائهــم   للتـــاجِ لا دَغــــلٌ ولا إســــرار

راحُــوا فمــا بكــتِ الــديارُ علــيهمُ   وغَــدوا فلــم يَفــرَحْ بهــمْ ديّــار

وبَنـــوا لنـــا بيتـــاً أقمنـــا عُـــشْرَهُ   ولِمــنْ هنـــاكَ التـــسعةُ الأعـــشار

ثـــم انكفأنـــا نـــصطلي بوقيـــدةٍ   نحـــنُ الوقــودُ لهــا، ونحــنُ النــار

وانــصاعَ يــدفعُ مــن دمــاءٍ جزيــةً   شــعبٌ تُغِـــلُّ جهـــودَه أنفـــار

وتخريـــتْ ـــ لتُـــسدَّ أجـــواز الـــسما   تلـكَ القـصورُ ـ مـن الجمـوعِ ديـار

وبـــدتْ علـــى تلـــك الملايـــينِ الـــتي   شـــرَتِ الحريـــرَ لغيرهـــا، أطمـــار

وأفـــاقَ مخـــدوعاً ليَـــسمعَ هاتفـــاً   "خـفَّ الهـوى وتقـضَّتِ الأوطـار"[1]

وتـــساءلوا فـــيمَ اســـتجدُّوا ثـــورةً؟   وعلى مَنِ امتشقوا الحسامَ وثاروا؟

---

(١) التضمين من مطلع قصيدة أبي تمام:

لا أنـــت أنـــت ولا الـــديار ديـــار   خـــف الهـــوى وتولـــت الأوطـــار

أعلــى الــدخيلِ الــسامريِّ ومثلُــه وأمـــرُّ منـــه عِجلُـــه الخـــوار

ولأجـلِ مَــنْ؟ ألمــنْ مــضَوا ببقيــةٍ رأفَ الغريـــبُ بمثلـــها، وأغـــاروا؟

ألأجـلِ أن يُـسقى الطغـاةُ دمـاءَهم، ولهـم ـ إذا رَفَقـوا بهـم ـ أسـآر؟[1]

تلــكَ الثلاثــونَ العِجــافُ، أذلَّهــا ســوطُ الرُّعـاة، ومـسَّها الإضـرار[2]

جَمَدتْ على الجِلْدِ اليبيس ضروعُها مـن فـرطِ مـا احتُلبـتْ لهـا أشـطار

لم تُبــقِ منهــا الطارئــاتُ جُــزازةً لــو كــانَ يَعــرفُ رحمــةً جــزّار

*****

ســرعان مــا خفـق اللـواء، وشـرعت نظـــم، وقامـــت دولـــة وشـــعار

الجــور صُــلْبُ كيانهــا، ونظامهــا الإقطـــاعُ والإذلالُ والإفقـــار

لم يبـــق شـــبر لم تنلـــه معـــرة أو لم تنـــشه مذلـــة وصـــغار

وبكـــل آونـــة فويـــق بُناتـــه يـــنقضُّ مـــن هـــذا البنـــاء جـــدار

صـــور مزيفـــة كـــأن نحاسَـــها مـــن فـــرط مـــا لمـع الطـلاء نـضار

*****

(١) الأسآر: جمع سؤر وهو البقية في قعر الإناء.

(٢) الثلاثون: الثلاثون عاماً التي مرت على ثورة العشرين، فقد نظمت هذه القصيدة سنة ١٩٥٠.

كنا نشاجر ـ حين نرحل ـ غاصباً إذ كان بين الغاضبين شجار

واليومَ والوحي الملقّن واحدٌ حُجُزٌ توحد بيننا وحصار

والأمنُ كان وكان معنى فَقْده أن البلاد تحفها أخطار

فإذا به شبح تهدد أُسَّه صحف، وتنسف ركنه أشعار

كنا نقيم الكون حين يمسنا ضرٌّ وحين يهُدنا إعصار

والآن نحن إذا اشتكينا غاصباً قالوا: أولاءَ بنوكُمُ الأخيار!

"ممن حملن بهم وهن عواقد حُبكَ النطاق" حرائر أطهار![1]

أولاء لأنتم غير أن إطارهم منا، وبئست صورة وإطار!

ولنحن أعرف من هم ولمن هم ولمن تمثل هذه الأدوار!

ومن المصرف من فضولِ عِنانهم ولمن يعود الورد والإصدار!

******

تنهى وتأمر ما تشاء عصابة ينهى ويأمر فوقها استعمار

خويت خزائنها لما عصفت بها الشـ ـهوات، والاسباط، والأصهار

---

(١) التضمين من بيت أبي كبير الهذلي:

ممن حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مهبل

واستنجدت ـ ودمُ الشعوب ضمانها ورفاهها ـ فأمدها "الدُّولار"

يلوى به عصب البلاد, وتشترى ذمم الرجال, وتحجز الأفكار

عرفوا مصايرهم إذا جلى غد في المشرقين, ولاحت الأنوار

وإذا استوى أجل فزعزع طارئ عاتٍ, وقر من الشعوب قرار

ورأوا بأعينهم فجيعة أهلها إذ عرسوا, وحبورهم إذ طاروا[1]

وتيقنوا أن لا وجار يقيهم حتفاً, وللضب الضليل وجار[2]

فهُمُ وفرط الحقد لاث دماءهم كلَبٌ بهم لدمائنا وسُعار

وهمُ يَجِدّون الأظافرَ منهم علماً بيوم تقلمُ الأظفار

******

قلنا لهم: فيم اللجاجة والسما تعطي وتمنع, والقضا غدار؟

وعلامَ يشتط الممثل منكم رفقاً بساعةِ ترفعُ الأستار؟

وعلامَ يوغل في الحماسة راقصٌ بأشدَّ مما ينفخُ الزمار؟!

وعلامَ يسدُرُ في الصبابة سادرٌ وعلامَ يُخلعُ في الغرام عذار؟

(١) عرسوا... وطاروا: يقصد أقاموا... ورحلوا

(٢) الوجار: بفتح الواو وكسره: جحر الضب وغيره.

قلنــــا لهــــم: إن الـــشعوب منيخـــةٌ أبـــداً، وحكـــام الـــشعوب ســـفار[1]
قلنــــا لهــــم: إن الـــنبي محمـــداً يـــأبى الخنـــى والواحـــد القهـــار
قلنــــا لهــــم: إن البيـــاض لَـــشحمةٌ والليـــل ليـــل والنهـــار نهـــار
فـــأتى الجـــواب لنـــا بـــأن نهـــاركم ليـــلٌ، وأن عـــشيركم كفـــار!
وإذا أبيـــــتمْ فالجريمـــــة أنَّكـــــم للبلـــــشفية بيننـــــا أنـــــصار
لـــو كنـــتُ مـــنهم لم أكـــافئْ غيرهـــم بـــالخير ممـــا عجلـــوا وأثارهـــا
يـــا أيُّهـــا المتحكمـــونَ وإننـــا ودماءَنـــا مثـــلَ البهـــيمِ جُبـــار[2]
قولـوا الـصحيحَ: سنستبيحُ جُلودَكم للـــــسالِخينَ لأنَّكـــــم أحـــــرار!

******

إنـــي ـــ وللـــذُوَّاد عـــن أوطـــانهم وشـــعوبِها الإجـــلال والإكبـــار
لـــي في العـــراقِ مقالـــةٌ مـــأثورة وكـأنهـــا مَثَـــلٌ بـــهِ ســـيّار
أبـــصرتُ شمطـــاءً تَتِيـــهُ وفوقَهـــا تـــشكو الـــضياعَ قِـــلادةٌ وسِـــوار
جـــسدٌ تعـــوَّضَ بـــالحُليِّ وجَرسِـــه إذ غـــاضَ منـــه شـــبابهُ الفـــوّار

---

(١) منيخة: مقيمة ثابتة. سفار: مصدر سافر أي مُسافرون عابرون.
(٢) جبار (بالضم) هدر.

فذكرتُ كيف يُشَدُّ من مُتغطرسٍ ... واهي الضميرِ ضميرهُ المُنهار

ورأيتُ في سُوقِ النخّاسةِ تعتلي ... وجهَ الرقيقِ مَهانةٌ وصَغار

وبآسنٍ من بؤسِهم مستنقَعٍ ... قد راحَ ينفخُ صدرَه سِمسار

فذكرتُ ما تلقى الشعوبُ ضعيفة ... عَزلاً تسوسُ أمورَها أغمار

وذكرتُ كيفَ المستظِلُّ بغيره ... يُوحي ويُوهِم أنَّه جبار

عبدَ الحميدِ وطهرُ نَفْسِكَ جنةٌ ... وجميلُ صنعكَ روضةٌ مِعطار

يا دارجاً في الخالدين ضميرهُ ... صلَّتْ عليكَ الرفقةُ الأبرار

تنويمة الجياع

نشرت في جريدة "الأوقات البغدادية"، العدد٢٨ في ٢٨ آذار ١٩٥١.

نـــامي جيـــاعَ الـــشَّعبِ نـــامي   حرسَـــــتْك آلِهـــــةُ الطَّعــــامِ

نـــــامي فــــإنْ لم تـــــشبَعي   مِــــن يَقْظَــــةٍ فمِـــنَ المنـــام

نـــامي علـــى زُبـــدِ الوعـــود   يُـــــداف في عَـــــسلِ الكــــلام

نـــامي تَـــزُرْكِ عـــرائسُ الـــ   ـــ أحــــلام في جُــــنحِ الظــــلام

تتنــــوَّري قُــــرْصَ الرغيــــ   ـــف كــدورةِ البــدر التمــام!

وَتَـــرَيْ زرائبَـــكِ الفِـــسا   ـــحَ مبلَّطـــــاتٍ بالرُّخــــــام

******

نـــامي تَـــصحّي! نِعْـــمَ نـــو   ـــمُ المـــرءِ في الكُـــرَبِ الجـــسامِ

نـــامي علـــى حُمَـــةِ القنـــا   نـــامي علـــى حـــدِّ الحُـــسام

نـــامي إلى يـــومِ النـــشو   ـــرِ ويـــومَ يُـــؤذَنُ بالقيـــام

نـــامي علـــى المـــستنقعا ـ تِ تَمُـوجُ بـاللُّججِ الطَّـوامي

زخَّـــارةً بـــشذى الأقـــا ـ حِ يمــدُّه نفــحُ الخُــزام

نـــامي علـــى نَغَـمِ البعــو ـ ض كأنـــه ســجعُ الحمـــام

نـــامي علـــى هـــذي الطبيـــ ـ ــعةِ لم تُحَـلَّ بــه "ميـامي"

نـــامي فقـــد أضـــفى العَـــرا ـ ءُ" عليـكِ أثـوابَ الغـرام

نـــامي علـــى حلُـــمِ الحـــوا ـ صـد عاريـاتٍ للحــزام

متراقـــصاتٍ والـــسِّيا ـ طُ تَجِـدُّ عَزْفـاً بـارتزام[1]

وتغـــازلي والنَّاعمـــا ـ تِ الزَّاحفـاتِ مِـن الهـوام

نـــامي علـــى مهْـــدِ الأذى وتوسَّـدي خـدَّ الرَّغـام[2]

واستفرشـــي صُـــمَّ الحـــصى وتَلَحَّفـي ظُلَـلَ الغَمـام

نـــامي فقـــد أنهـــى "مُجيـــ ـ ـعُ الـشعبِ" أيَّـام الصيام

---

(١) الارتزام: شدة الصوت، وقد تعني شدة الضرب.

(٢) الرغام: التراب.

نـــــامي فقــــد غنَّــــى "إلـــــ ـــــهُ الحــــرب" ألحـــانَ الـــسلام!

نــــامي جيــــاعَ الــــشعبِ نــــامي الفجـــــــــرُ آذَنَ بانـــــــــصرامِ

والـــــشمسُ لـــــن تُؤذيـــــك بعـــــ ـــدُ بمـــا تَـــوَهَّج مـــن ضِـــرام

والنـــــورُ لـــــن "يُعمـــــي!" جُفـــو نـــاً قـــد جُـــبِلنَ علـــى الظـــلام

نـــــامي كعهـــــدكِ بـــــالكَرى وبلُطفـــــهِ مـــــن عهـــدِ "حـــام"

نـــــامي.. غـــدٌ يـــسقيكِ مـــن عـــسلٍ وخمـــرٍ ألـــفَ جـــام

أجــــرَ الــــذليل، وبــــردَ أفئـــــ ـــــدةٍ إلى العليـــــا ظـــــوامي

نــــامي وسِـــــيري في منـــــا مِـــلكِ مـــا اســـتطعتِ إلى الأمـــام

نــــامي علـــى تلـــكَ العِظـــا تِ الغُـــــرِّ مـــــن ذاكَ الإمـــــام

يُوصـــــــــيكِ أنْ لا تطعمـــــــي مـــــن مـــــال ربِّـــكِ في حُطـــام

يُوصــــيكِ أنْ تَـــدعي المبـــاهجَ واللذائـــــــــذَ لِلِّئـــــــــام

وتُعوضـــــي عـــــن كــــلِّ ذ ــ لــــك بالـــسُجودِ وبالقيـــام
نـــامي علـــى الخُطَـــبِ الطِّـــوا ــ لِ مِـــن الغطارفـــة العظـــام[1] ..!!
نـــــامي يُـــــساقَطْ رزقُـــــكِ الموعـــودُ فوقَـــكِ بانتظـــام
نـــامي علـــى تلـــكَ المبـــا ــ هـــجِ لم تَـــدَعْ سَـــهْماً لرامـــي
لم تُبـــقِ مـــن "نُقـــلٍ!" يـــسرُّ ــ ك لم تَجئـــهُ... ومـــن إدام
بَنَـــتِ البُّيـــوتَ وفجَّـــرتْ جُـــردَ الـــصحارى والمـــوامي[2]
نـــامي تَطُـــفْ حُـــورُ الجنـــ ــ ـــانِ عليـــكِ منهـــا بالمُـــدام
نـــامي علـــى البَـــرصِ المبيَّـــ ــ ـــضِ مـــن ســـوادِك والجُـــذام
نـــامي فكـــفُّ اللهِ تغـــسـ ــ ـــل عنـــكِ أدرانَ الـــسقام
نـــامي فحِـــرزُ المـــؤمنينَ يـــذُب عنـــكِ علـــى الـــدوام
نـــامي فمـــا الـــدُّنيا ســـوى "جـــسرٍ!" علـــى نكـــدٍ مُقـــام

******

(١) الغطارفة: جمع غطريف (بكسر الغين) وهو السيد الشريف. وجاءت هنا من باب السخرية.

(٢) الموامي: جمع موماة وهي القفر.

نـــــامي ولا تتجـــــــادلي		القـــولُ مـــا قالـــتْ "حَـــذام"
نـــامي علـــى المجــدِ القديـــ ـــ ـــمِ وفـــوقَ كـــوم مـــن عظـــام
تِيهــــي بأشـــــباهِ العِـــــصا ـــ مـــيِّينَ! منـــكِ علـــى "عِـــصام"
الـــــرافعينَ الهـــــامَ مِــــن		جُثـــثٍ فرَشْـــتِ لهـــم وهـــام
والــــواحمينَ ومِــــن دمــــا ـــ ئِـــكِ يرتـــوي شـــرَهُ الوِحـــام
نـــامي فنومُـــكِ خـــيرُ مـــا		حَمـــلَ المـــؤرخُ مـــن وِســـام

******

نـــامي جيـــاعَ الـــشعبِ نـــامي		بُرِّئْـــــتِ مِــــن عيـــــبٍ وذام
نـــامي فـــإنَّ الوحـــدةَ الـــ ـــ ـعـــصماء تطلُـــبُ أنْ تنـــامي
نـــامي جيـــاعَ الـــشعبِ نـــامي		النَــومُ مـــن نِعَـــمِ الـــسلام
تتوحَّـــــدُ الأحــــزابُ فيــــ ـــ ـــه ويُتَّقـــى خطـــرُ الـــصِدام!
تهـــدا الجمـــوعُ بـــه وتَـــسـ ـــ ـــتغني الـــصُّفوفُ عـــنِ انقـــسام
إنَّ الحماقـــــةَ أن تَـــــشُقـّ ـــ ـــي بـــالنُّهوضِ عـــصا الوئـــام

والطـــــــيشُ أنْ لا تلجــــأي　　مِـــن حاكميــكِ إلى احتكـــام

الـــنفسُ كـــالفرسِ الجمـــو　ـ　حِ وعقلُهـــا مثـــلُ اللجـــام

نـــامي فـــإنَّ صـــلاحَ أمـــ　ـ　ـــرٍ فاســـدٍ في أنْ تنـــامي

والعـــروةُ الـــوثقى! إذا اســـ　ـ　ـــتيقظتِ تُـــؤذِنُ بانفـــصام

نـــــامي وإلا فالـــــــصفو　ـ　فُ تـــؤول منـــكِ إلى انقـــسام

نـــــامي فنومُـــــكِ فتنـــــةٌ　　إيقاظُهـــــا شـــــرٌّ الأثــــام

هـــــل غـــــيرُ أنْ تتيقّظـــــي　　فتعـــاوِدي كـــرَّ الخِـــصام

******

نـــامي جيـــاعَ الـــشعبِ نـــامي　　لا تَقْطَعـــــي رزقَ الأنـــــام

لا تقطعـــــــي رزقَ المُتـــــا　ـ　جِـــر والمُهنـــدس والمحـــامي!

نـــامي تُريحـــي الحاكميـــ　ـ　ـــنَ مِـــن اشـــتباكٍ والتحـــام

نـــامي تُـــوَقَّ بـــكِ الـــصَّحا　ـ　فـــةُ مـــن شـــكوكٍ واتهـــام

يَحْمَـــدْ لـــكِ القـــانونُ صُنْـــ　ـ　ـــعَ مُطـــاوِعٍ سَـــلِسِ الخُطـــام

خلِّـــي "الهُمـــامَ!" بفـــضلِ نـــو ــ مـــــكِ يتَّقـــي شـــرَّ الهُمـــام

وتجـــــــنَّبي الـــــــشبُهاتِ في وعـــــيٍ سيوصَـــــمُ بـــــاجترام

******

نـــــامي فجِلــــدُكِ لا يُطيـــــ ــ ـــقُ إذا صـــحا وقـــعَ الـــسِّهامِ

نـــــامي وخلّـــــي الناهـــضيـ ــ ـــنَ لوحـــدِهم هـــدفَ الروامـــي

نـــــامي وخلّـــــي اللائميــــــ ــ ـــنَ فمـــا يُـــضيركِ أنْ تُلامـــي!

نـــــامي فجُـــدْرانُ الـــسُّجو ــ نِ تعِـــــجُّ بـــــالموتِ الـــــزؤام

ولأنـــــت أحـــــوجُ بعـــــدَ أتـــــ ــ ـــعابِ الرُّضـــوخِ إلى جِمـــام

نـــــامي يُـــــرَحْ بمنامـــــكِ "الزُّعمـــــاءُ!" مـــــن داءٍ عقـــام

نـــــامي فحقّـــكِ لـــنْ يـــضيـ ــ ـــعَ ولـــستِ غُفْـــلاً! كالـــسَّوام

إن "الرُّعـــــــاةَ!" الـــــــساهر ــ يـــنَ ســـيمنعونك أن تُـــضامي

******

نـــامي علـــى جَـــوْرٍ كمـــا حُمِـــلَ الرضـــيعُ علـــى الفطـــام

وقَعـــي علـــى البلـــوى كمـــا وقـــع "الحـــسامُ!" علـــى الحـــسام

نـــامي علـــى جـــيشٍ مـــن الآ ـــ لامِ محتـــــــشدٍ لُهـــــــام[1]

أعطــــي القيـــادةَ للقـــضا ـــ ءِ وحكِّميـــــــهِ في الزِّمــــــام

واستـــــــسلمي للحادثـــــا ـــ تِ المُـــشفقاتِ علـــى النيـــام

إنَّ التـــيقظَ ـــــ لـــو علمـــ ـــ ـــتِ ـــ طليعـــةُ المـــوتِ الـــزُؤام

والـــــوعيُ ســـــيفٌ يُبتلـــى يـــــومَ التقـــارُعِ! بـــــانثلام[2]

******

نـــامي شَـــذاةَ الطُهـــرِ نـــامي يـــــا دُرَّةً بـــــينَ الرُّكـــــام[3]

يــــا نبتـــــةَ البلـــــوى ويـــــا ورداً ترعـــــــرعَ في اهتـــــــضام

يــــا حُـــــرَّةً لم تـــــدرِ مـــــا معنـــــى اضـــطغانٍ وانتقــــام!

يــــا شُـــــعلةَ النُـــــورِ الـــــتي تُعـــشي العيـــونَ بـــلا اضــطرام!

ســـــبحانَ ربِّـــــكِ صـــــورةً تزهـــو علـــى الـــصُّورِ الوِســــام

---

(١) اللهام: الجيش العظيم.

(٢) يبتلى: يصاب.

(٣) الشذاة: المسك.

إذْ تخـــتفينَ بـــلا اهتمـــام أو تُـــسفرينَ بـــلا لثـــام

إذْ تحملـــينَ الـــشرَّ صـــا ـ بـــرةً مـــن الهُــوجِ الطَّغــام

بُوركـــتِ مـــن "شَـــفعٍ" فـــإنْ نـــزلَ الـــبلاءُ فمـــن "تُـــؤام"[1]

كـم تـصمُدينَ علـى العتـا ـ ب وتـــسخرينَ مـــن المـــلام!

ســـبحانَ ربِّـــكِ صـــورة هـي والخطـوبُ علـى انسجام

******

نـامي جيـاعَ الـشعبِ نـامي النـــومُ أرعـــى للـــذِّمام

والنَّـــومُ أدعـــى للنـــزو ـ ل علـــى الـــسَّكينةِ والنظـــام

نـــامي فإنَّـــكِ في الـــشدا ـ ئـــدِ تخلُـــصينَ مـــن الزّحـــام

نـــامي جيـــاعَ الـــشعبِ لا تُعْنَـــيْ بـسِقطٍ مـن كلامـي

نـــامي فمـــا كـــانَ القـــصيـ ـــدُ ســـوى خُرَيْـــرٍ في نظـــام

نـــامي فقـــدْ حُـــبَّ العمـــا ـ ءُ عـــنِ المـــساوئ والتعـــامي

---

(١) الشفع: الزوج, الاثنان. التؤام: جمع التوأم.

نـــامي فبـــئسَ مطـــامعُ الــــ ــ ـــواعينَ! مِــن ســـيفٍ كَهـــام[1]

نــــامي: إليـــــكِ تحــــيَّتي وعليــــكِ, نائمــــةً, ســــلامي

نــــامي جيـــاعَ الــــشعبِ نــــامي

حرَسَــــــــتْكِ آلهــــــة الطَّعــــــام

(١) الكهام: لا يقطع.

خلّفت غاشية الخنوع..

ألقيت في الحفل المهيب الذي أقيم في دمشق عام ١٩٥٦ احتفالاً بذكرى مصرع الشهيد عدنان المالكي. وكان الشاعر ممثلاً للعراق في هذا الحفل بدعوة تلقاها من الجيش السوري. وقد اضطر إلى الإقامة في سورية قرابة عام ونصف العام من جراء تنمر المسؤولين آنذاك وحنقهم بسبب هذه القصيدة. وكان طوال هذه المدة ضيفاً على الجيش السوري.

خلَّفــتُ غاشــية الخنــوع ورائــي ... وأتيــتُ أقــبِسُ جمــرةَ الــشهداءِ

ودرجــتُ في دربٍ علــى عَنَــتِ الــسُّرى ... الــقٍ بنــور خطــاهمُ وضَّــاء

خلَّفتهــا وأتيــت يعتــصرُ الأســى ... قلــبي وينتــصبُ الكفــاحُ إزائــي

وحمِــدْتُ نفــساً حُــرَّةً لم تنــتقص ... شَــهْد الوفــاءِ بعلقــم الإغــراء

صبغانِ يأتلقـان مـا عـصفَ الـدُّجى ... بالنــاسِ لــونُ ســناً ولــونُ دمــاء

يلــدانِ فجــراً صــادقاً حلــوَ الــسنا ... خــضِلَ الظِــلال مــنعَّمَ الأفيــاء

مــن عهــد "قابيــل" وكــلُّ ضــحية ... رمــز اصــطراع الحــقِّ والأهــواء

ومــرارةُ الثكــل المقــدَّس إرثــة ... مــن "آدمٍ" جــاءت ومــن "حــوّاء

وفظاعــةُ التــاريخ بلــوى فكــرةٍ ... تَهــدي الــسبيلَ بفكــرة عميــاءِ

قـد قلـتُ للإلـفِ الخـدين يـدُلُّني أنَّـى تكـون معـالمُ الفيحـاء؟

قف بي على النَّسر الخضيب ولمَّ لي منـه نـسيلَ قـوادمٍ حمـراء[1]

وتخـطَّ بـي أرضـاً تعفَّـرّ فوقهـا ملـكُ الـسماءِ مـدوِّخُ الأجـواء

قـف بـي فلـستُ بمـأتمٍ لرثـاءِ أيُهـان عُـرْسُ رجولـةٍ ببكـاء

قـف بـي ألمَّ هنـا قـوافِ جُمِّعـت للمجـدِ مـن ألـفٍ بـه أو يـاء

أنـا لا أرى العـصماءَ غـيرَ عقيـدةٍ منـسابةٍ في فكـرةٍ عـصماء

هـذا أنـا.. عَظْـمُ الـضحيَّةِ ريـشتي أبـداً ولفْـحُ دمائهـا أضـوائي

أسـتلهم الـنغَمَ الخفـيَّ يمـوجُ في جُـرح الـشهيد بثـورةٍ خرسـاء

وأُحِـسُّ أنَّ يـدَ الـشهيد تجرُّنـي لـتلُفَّني وضـميرَهُ بـرداء

هاتيـكَ أبيـاتي يـصوغ خيالَهـا دون "العناصـر" عنـصرُ الأرزاء

---

(١) النسيل: ما سقط من ريش الطائر.

وأُولاءِ أزهـــاري يُرعـــرِع نـــشأها   نبـعُ الأسـى وخميلـةُ الـضرّاء

كـــسبيكةِ الإبريـــزِ تعـــدل قـــوَّةُ   الـــشهداء فيهـــا رقَّـــةَ البؤســـاء

قـــالوا قـــرابينٌ فقلـــتُ أرادهـــا   لـلأرض مَـن وصَّـى بهـا لـسماء

عُـــنيَ الإلـــهُ بهـــا فـــصيَّرَ أمرَهـــا   للنـــاسِ في أخـــذٍ لهـــم وعطـــاء

واختـــارَ للفـــدْيِ المفـــضَّلِ صـــفوةً   مِـــن ناهـــضينَ بثقلـــه أكفـــاء

يهبـــونَ أرواحـــاً فتـــنهضُ أُمَّـــةٌ   شمَّـــاء مُرســـاةٌ علـــى الأشـــلاء

وأثـــابهم عنهـــا الخلـــودَ فهـــا هـــمُ   نُصُبٌ شخوصٌ في عيون الرائي[1]

******

عـــدنانُ إنَّ دمـــاً وهبـــتَ رســـالةٌ   أنـا مـن صـميمِ دعاتهـا الأمَنـاء

آمنــتُ بــالحُمر النــوافح في الثَّـرى   يبــساً أريــجَ الواحــة الخــضراء[2]

المهـــدياتِ العُمْـــيِ أيَّـــةَ رؤيـــة   والمـــسمعاتِ الـــصمِّ أيَّ دعـــاء

والمنــزِلات علــى المَـدى سُـورَ الهـدى   ورســـــالةَ الآبــــاءِ للأبنــــاء

---

(١) النصب (بضمتين) جمع نصاب كالأنصاب وهي التماثيل.

(٢) يريد بـ "الحمر": الدماء.

والجـاعلاتِ "الجيـلَ" جـسر رديفـه وبنيـــهِ للآتـــينَ رمـــزَ فـــداء

آمنــتُ لا وحـــي العقيــدةِ وحــدَها لكـنْ بمـا أسـلفتُ مـن خُلَـصائي

آمنـــتُ إيمـــانَ الحجـــيج بقـــصدهِ فهناك لـي جَدَثٌ على البطحـاء[1]

آمنـــــتُ إيمـــانَ النهـــار بشمـــسه فلقــد غُمــرتُ بنورهــا الوضــاء

آمنـــتُ إيمـــانَ الـــدماءِ بنفـــسها فأنـا الـصبيغُ بهـا صبـاحَ مـساء

عــدنانُ لــو أفــضى إليــك نــدائي ولــو اسـتمعتَ للـهفتي ودعــائي

ولـــو انعطفـــتَ إلى أحبَّتـــكَ الألى يتــصيَّدونَ رؤى القريــب النــائي

أُطريـكَ لـو أنجـاكَ مُطـرٍ مـن أذى ولـــو اســـتردَّكَ ســـالماً إطرائـــي

عــدنانُ يــا لُطفــاً تفجَّــرَ عــن دمٍ يــا جــدولاً ينــسابُ في صــحراء

يـا ضِـحكةَ الفجـر النـديِّ تهـشمت بنعيـــبِ فُوهـــةِ بومـــةٍ نكـــراء[2]

(١) إشارة إلى قبر أخيه الشهيد "جعفر الجواهري" في النجف.

(٢) يريد بنعيب فوهة البومة النكراء، أزير الرصاص الذي انطلق من مسدسالجاني.

قــالوا أتعرفــه؟ فقلــتُ وكنهَــهُ عرفــانَ نــور الــشمس بــالـلألاء

ولَـــرُبَّ أرواحٍ تُـــذيعُ صـــفاتِها حتــى وإنْ عَريــتْ عــن الأسمــاء

يــا أيُّهــا البطــلُ الموحِّــدُ أُمَّــةً بدمائــه، قُدِّسْــتَ مــن بنــاء

أســلفتَ للأجيــال خــيرَ عَطــاءٍ ولقيــتَ مــن عُقبــاكَ خــيرَ جــزاء

وأقمــتَ مــن ذكــراكَ مزحــفَ فيلــقٍ في كــلِّ معركــةٍ وخفــقَ لــواء

اليــومَ تحــصدُ أُمَّــةٌ حُلــوَ الجنــى ممَّــا زرعــتَ بهــا مــن الخلفــاء

الحارســينَ الــشعبَ مــن أعدائــه والــشعبُ يحرسُــهم مــن الأعــداء

والــشاربينَ بمثــلِ مــا يــسقونه بالحُــبِّ صُــنْعَ النُخْبَــةِ النُــدَماء

عــدنانُ لا ثــأرٌ فأنــت مــبرّأ مــن ضِــغنةٍ، عَــفٌّ عــن الجبنــاء

كَفَــتِ الجريمــةُ خزيــةً ونكايــةً لمعــذَّبينَ بجــرمهم تُعــساء

عدنانُ ما جدوى قصاصك من يَدٍ ألــوى بهــا مــستعمرٌ، جــذّاء[1]

عــدنانُ ثــأركَ أنْ تُطــوّح أمــةٌ بركــائزِ المــوحينَ للعمــلاء

******

---

(١) جذاء: مقطوعة.

عـدنانُ أنطِقْـني فقـد خَنَـقَ الـشَّجا		بفمـي البليـغِ مقالـةَ البلغـاء
حاسـبتُ نفـسي والأنـاة تردُّهـا		في معـرِضِ التـصريح للإيمـاء
بيني لُعنـتِ فلستُ منـكِ وقـد مشى		فيكِ الخمولُ ولستِ مـن خُلَطائي
مـاذا يَميـزكِ والـسكوت قـسيمة		عـن خـانعٍ، مُهـادن ومرائـي
أبأضـعفِ الإيمـان يخـدع نفـسَهُ		مَـن سـنَّ حُـبَّ المـوت للـضعفاء؟
أيـزُمُّ مـن شـفةٍ علـى عـذباتها		نـضحتْ أمـاني عـزَّةٍ وإبـاء؟
خلي النِّقـاطَ على الحـروف وأوغلي		في الجهر ما وسعتْ حروفُ هجاء
مـا أنـتِ إذ لا تـصدَعينَ فواحـشاً		إلا كراضـيةٍ عـن الفحـشاء

******

أضـحيَّةَ الحلـفِ الهجـين بـشارة		لـكَ في تكـشّفِ سـوءةِ الهُجَنـاء[1]
أسطورة "الأحلاف" سوف يمُجُّها التا –		ريـخُ مثـلَ خرافـة "الحلفـاء"
سَـرعان مـا تنهـدّ بعـد أوارةٍ		تعشي العيون كفحمة الطَّرْفاء

(١) المقصود هنا هو "حلف بغداد" الذي كان الشهيد في جملة الأحرار الشجعان الذين يناصبونه وعاقديه العداء.

قـــالوا تعاقـــدنا فقلـــتُ هنئـــتمُ   بقِــرانِ فَــرطِ خنــاً بفــرطِ غبــاء
وا هُــزأة الأحـــلاف بـــين مـــسخّرٍ   ومــــسخَّرين وســـيِّدٍ وإمــــاء
يــا مــن رأى "حلفــاً" عجيبــاً أمــرهُ   بــين الثَّــرى وكواكــب الجــوزاء
وتعلَّقـــت هُـــزْءاً علـــى أضـــوائه   بنيـــوبِ ذؤبـــانٍ أكـــارعُ شـــاء

******

هاتيـــكَ أنعـــم حلفـــةٍ وإخـــاء   إعـــصار طـــاعونٍ وريـــح وبـــاء
وعـصارةٌ للـرجس تنـسِفُ مـا ابتنـى   الأجــدادُ مــن أكرومــةٍ وحيــاء
وجيـــوشُ بغـــيٍ تـــستعينُ بمثلـــها   مــن خــائني وطــنٍ ومــن دخــلاء
نــسجوا نــسيجَ العنكبــوتِ وهــا هــمُ   منـــه بليلـــةِ حاطـــبٍ عـــشواء
واهــي الخيــوط يــشِفُّ عمَّــا تحتــه   فكـــأنهم منـــه بغـــيرِ غطـــاء
واعتــاصَ رتــقُ فتوقــه حتــى مــشى   ســأمُ الكــلال علــى يــدِ الرَّفّــاء

******

دَّوى علـــى المــستعمرينَ صــواعقاً وعــيُ الـشعوب ويقظـةُ الـدَّهماء
وتكــشَّفوا عُريــاً علــى أضــوائها مثــلَ اللــصوص بليلــةٍ قمــراء
وتقيَّحـــت مـــن زِمنـــةٍ فتعفَّنـــت بـــصديدهنّ ضـــمائرُ الأجـــراء
فهــمُ كفــاجرةٍ تغطّــي جهــدَها صــدقَ الفجـور بكـاذبِ الخُـيَلاء
وهــمُ كخرقــاء تُــنَفِّش عِهنهــا صــيفاً وتَــنقض غزلهـا بـشتاء[1]
وهــم يزمُّــون الحقائــبَ خــشية مــن فجــأةِ الأقــدارِ كـالنزلاء
ســتُغِذُّ في غــدٍ القريــب كتائــبٌ لحتــوفِ معتــصمينَ كالزّبــاء
ستدوسُ أقـدامُ الـشعوب كخرقـةٍ مهـروءةٍ مـن كـانَ سـوطَ بـلاء
ســيرَوْن كيــف تجيــدُ في إبانهــا صــنعَ المعــاجز جمــرةُ البغـضاء
سَــيرى عَتــادُ الأجــنبيّ بعينــه مرمــى عقيــدةِ أُمَّـــةٍ عـــزلاء
ســتعود تُــصهَر طلقــةً وقذيفــة ترمـي الطغـاةَ سلاسـلُ الـسجناء

******

(١) العهن: الصوف.

عَــوَّذتُ "جِلَّــقَ" بالــضحايا جمَّــةً　　مـــن كيـــدِ همَّـــازٍ بهـــا مـــشّاء

مــن ســائرينَ القَهقَــرَى لم يعرفــوا　　بـــين الجهـــاتِ الـــستّ غـــيرَ وراء

عوَّذتُهــــا بـــأغرَّ أبلـــجَ مُـــصْلَت　　كالـــسَّيف "شـــكري" كاشـــفِ

بالحامــل الأعبــاءِ يــشمخُ فوقهــا　　أمـــلُ العُروبـــةِ أثقـــلُ الأعبـــاء

بمـــسعِّر الجمـــراتِ يحـــدو أُمَّـــةً　　لم تخـــلُ في الأزمـــات مـــن حـــدّاء

عوَّذتُهــــا بـــشبيبةٍ رأد الـــضحى　　مـــن بعـــضها ولطافـــةُ الأنـــداء

عَّوذتُهــــا بالمـــــالكيِّ ورهطــــه　　مـــن صـــفوةِ العُقَـــداءِ والزُّعمـــاء

مِــن نــاذرين نفوسَــهم لم يعرفــوا　　فـــيهنَّ غــــيرَ فريـــضةٍ وأداء

بُــشراةِ مــوتٍ يزحفــون إلى الــوغى　　زحـــفَ الحبيـــبِ لموعـــدٍ ولقـــاء

وبراقـــدٍ في "ميـــسلونَ" وطيفـــه　　متنقـــلٌ ينهـــى عـــن الإغفـــاء[1]

يــا شــامُ يــا لمــحَ الكواكــب في دجــى　　يــا موكــبَ الأعــراس في صــحراء

---

(١) يريد بالراقد في "ميسلون" الشهيد البطل القائد السوري "يوسف العظمة" الذي استشهد على أبواب دمشق وهو يصد الجيوش الفرنسية المحتلة الزاحفة إليها.

يـا موئـل الـذكرى يغطّـي أرضَـها ... وسماءهــا حــشدٌ مــن الأصــداء

يـــا أُمَّ "أقيـــالٍ" ومــــدرجَ أُمَّــــةٍ ... وعــرينَ أشــبال وكهــفَ رجــاء[1]

يــا أخــتَ "غــسَّانٍ" ينــادمُ رهطَــه ... يومــاً بجِلَّــقَ ـ سـيّدُ الـشعراء[2]

يــا بنــتَ "مــروانٍ" يركــز رايــةً ... حمــراء فــوقَ رمالــك الــسمراء

يـا ملعـبَ البـيض الغرائـر يمَّحـي ... يــومُ الغــرام بــه بيــوم لقــاء

أبــداً يــضوع بــه لفتيــانِ الحمــى ... غَـزَلٌ يـذوبُ علـى لظـى الهيجـاء[3]

جَــلَّ العُــلا أبُنيــتِ مــن أشــلاءِ ... أرُفعــتِ فــوقَ جمــاجمٍ ودمــاء؟

لله أنــتِ أكــلُّ يومــكِ حاشــد ... بـرجولـــة ومـــروءة وفَتــــاء؟

في أيِّ جــو عـــابسٍ لم تُــسفري ... ريّــا الجنــانِ نديَّــةَ الأضــواء؟

وبــأيِّ سُــوحِ مكــارمٍ لم يرتفــع ... عَلَــمٌ عليــكِ مثلــثُ الأجــزاء؟

---

(١) الأقيال: جمع قيل ويريد السادة.

(٢) المراد بـ "سيد الشعراء": حسان بن ثابت.

(٣) يضوع: ينتشر.

اليــــوم عيـــد الـــواهبين، وفي غـــدٍ عيـد الفتـوح، وأمـس عيـد جـلاء

قُـــدُماً دِمـــشقُ لـــسُنَّةٌ عُوِّدتهـــا في الحمـدِ مـن عَـودٍ علـى إبـداء

أفْزَعْتِ مـن محـل الخطـوب سياسـةً بنَّـــاءةً ونُتِجـــتِ مـــن عـــشراء

سَلِمَتْ يـداكِ فقـد قـسوت عليهمـا في عـــصر رأسِ الحيـــة الرقطـــاء

لم يبـقَ منهـا غـير سـؤر حُـشاشةٍ يُلـــوى بهـــا ذنـــبٌ وغـــير ذمـــاء

أنهـــي فـــديتُكِ أمرَهـــا وتخلَّـــصي منهـــا ومـــن قِـــشَرٍ لهـــا ملـــساء

وتحـــضَّني جـــيلاً أسـلـتِ لرعيـــه خـــيرَ الـــصدور وأكـــرم الأثـــداء

رُدّي الأمانـــــةَ يستـــــسرُّ بنورهـــــا "عـــدنانُ" وهـــو بلُجَّـــةِ الظلمـــاء

أنفاسُـــكِ الرَّوحـــاء هُـــنَّ بقيَّـــة للمجـدِ مـن أنفاسـكِ الـصُعَداء

يـا كوكـبَ الـشهداء شـكوى مُـرَّةً لك ترتمي من كوكب الشعراء

قـسماً بقـبرك وهـي حِلفـةُ صـادقٍ أجلـــى بيانـــاً مـــن أجـــلِّ ثنـــاء

مـا ضـيعةُ الـشهداء في أسـر الـرَّدى كمتاهـــةِ الـــشهداء في الأحيـــاء

في كـــلِّ يـــومٍ ميتـــةٌ ملحـــودةٌ بالـــصَّبر آونـــةً وبالإغـــضاء

وبكـــلِّ زاويـــةٍ ضـــميرٌ يلتـــوي لَـــيَّ الطعـــين بحربـــةٍ عقفـــاء

أبـــداً تنـــزُّ دمـــاً جـــراحُ كرامـــةٍ هانـتْ هـوان الجُـرح في عجمـاء[1]

حَـسْبُ الكـريم مـن الأذى إحجامـه حتـى عـن الـشكوى مـن الإيـذاء

وكَفَـى الـشجاعَ رويـةً وعزيمـةً ذلاًّ تمنّـــي عيـــشة الجبنـــاء

وسُـقيتَ مـن وعـي الـبلاد وعزِّهـا مـا يـصطفيكَ بروضـةٍ غنـاء

(١) العجماء: البهيمة.

دمشق يا جبهة المجد

شَــــمَمتُ تُربـــكِ لا زُلفـــى، ولا ملقـــا
وســـــرتُ قـــصدُكِ لا خِبـــاً، ولا مَـــذِقا

ومـــا وجـــدتُ إلى لقيـــاك مُنعَطفـــاً
إلاّ إليـــــكِ، ولا أَلفيــــــتُ مُفترقــــــا

كنـــتِ الطريـــقَ إلى هــــاوٍ تُنازعُـــه
نَفـــسٌ تَـــسُدُّ عليـــه دونهـــا الطرُّقـــا

وكـــان قلـــبي إلى رؤيـــاكِ باصــــرتي
حتـــى اتهمـــتُ عليـــكِ العـــينَ والحـــدقا

شَـــممتُ تُربــكِ أســـتاف الـــصبا مرحـــاً
والـــــشملَ مُؤتلفـــــاً، والعقـــــدَ مُؤتلقـــــا

وســـرتُ قـــصدكِ لا كالمـــشتهي بَلـــداً
لكـــنْ كمَـــن يتـــشهَّى وجـــه مـــن عَـــشِقا

قـــالوا "دمـــشقُ" و"بغـــدادُ" فقلـــتُ هُمـــا

فجـــرٌ علـــى الغـــدِ مـــن أمـــسيهما انبثقـــا

مـــا تعجبـــون؟ أَمِـــن مَهـــدينِ قـــد جُمعـــا

أَم تـــوأمينِ علـــى عهـــديهما اتَّفقـــا

أَم صـــامدينِ يَربَّـــان المـــصيرَ معـــاً

حبـــاً ويقتـــسمان الأمـــنَ والفرقـــا

يُهدهـــدان لـــساناً واحـــداً ودمـــاً

صُـــنواً، ومعتقـــداً حُـــراً، ومُنطلقـــا

أَقـــستُ بالأمَّـــةِ استوصَـــى بهـــا قـــدرٌ

خـــيراً، ولاءَم منهـــا الخَلـــقَ والخُلُقـــا

مَـــنْ قـــالَ أنْ لـــيسَ مِـــن معنـــىً للفظتهـــا

بـــلا دمـــشقَ وبغـــدادٍ فقـــد صَـــدَقا

فـــلا رعـــى اللهُ يَومـــاً دسَّ بينهمـــا

وقيعـــةً، ورعـــى يومَيهمـــا ووقـــى

******

يــا جُلَّــق الــشامِ والأعــوامُ تجمَــعُ لــي

سبعاً وسبعينَ مــا التامــا ولا افترقــا

مــا كــان لــي منهمــا يومــان عــشتُهما

إلاّ وبالــسؤرِ مــن كأســيهما شــرقا

يعــاودانِ نَفــاراً كُلَّمــا اصــطبحا

وينــسيان هــوىً كانــا قــد اغتبقــا

ورحــتُ أطفــو علــى موجيهمــا قلقــاً

أكــاد أحــسدُ مــرءاً فيهمــا غرقــا

يــا للــشبابِ يغــارُ الحلــم مــن شــرةٍ

بــه, وتحــسدُ فيــه الحِنكــةُ الترقــا

وللبــساطة مــا أغلــى كنائِزهــا

"قــارون" يــرخص فيهــا التــبر والورِقــا

تلــمُّ كأســي ومــن أهــوى, وخــاطرتي

ومــا تجــيشُ وبيــت الــشعر والورقــا

أيـــامَ نعكـــفُ بالحـــسنى علـــى سَـــمَر

تـــساقطُ اللعَـــو فيـــه كيفَمـــا اتفقـــا

إذْ مـــسكة الربـــوات الخُـــضر تُوســـعُنا

بمـــا تفتَّـــقَ مـــن أنـــسامها عَبَقـــا

إذْ تُـــسقط "الهامـــةُ" الإصـــباحَ يُرقِـــصُنا

و"قاســـيون" علينـــا ينـــشرُ الـــشَّفقا

نرعـــى الأصـــيلَ لـــداجي الليـــلِ يُـــسلمُنا

ومـــن كـــوىً خفـــراتٍ نرقـــبُ الغَـــسقا

ومـــن كـــوى خفـــراتٍ نـــستجدُّ رُؤىً

نـــشوانَةً عـــن رُؤىً مملولَـــةٍ نـــسقا

آهٍ علـــى الحلـــوِ في مـــرٍّ نغـــصُّ بـــه

تقطَّـــرا عَـــسلاً في الـــسُّمِّ واصـــطفقا

******

يــا "جُلَّــق الــشام" إنــا خلقــةٌ عجــبٌ
لم يــدرِ مــا ســرها إلاَّ الــذي خلقــا
إنـــا لنخنـــقُ في الأضـــلاعِ غربتنـــا
وإن تنـــزتْ علـــى أحـــداقنا حُرَقـــا
معـــذَّبونَ وجنَّـــاتُ النَّعـــيمِ بنـــا
وعَاطِـــشون ونَمـــري الجَونـــةِ الغَـــدقا
وزاحفـــونَ بأجـــسامٍ نوابـــضُها
تـــستامُ ذروةَ "عِلـــيِّينَ" مُرتَفَقَـــا
نُغْـــني الحيـــاةَ ونَـــستَغْني كـــأنَّ لنـــا
رأدَ الـــضُّحى غَلَـــةً والـــصُّبحَ والفَلَقَـــا
يا "جُلَّـقَ الـشام" كـمْ مـن مَطمـحٍ خَلـسٍ
للمـــرءِ في غفلـــةٍ مِـــنْ دَهـــرِهِ سُـــرِقا
وآخـــر سُـــلَّ مِـــن أَنيـــابِ مُفتَـــرِسٍ
وآخـــرٍ تحـــت أَقْـــدامٍ لـــهُ سُـــحِقا

دامٍ صـــراعُ أخـــي شـــجوٍ ومـــا خَلَقـــا
مِـــن الهُمـــومِ تُعَنِّيـــه، ومـــا اختلقـــا

يـــسعى إلى مطمـــحٍ حانـــت ولادَتُـــه
في حـــين يحمـــلُ شـــلواً مطمحـــا شُـــنِقا

حـــرَّانَ حـــيران أقـــوى في مُـــصامدةٍ
علـــى الـــسكوت، وخـــيرٌ منـــه إن نطقـــا

كـــذاك كـــلُّ الـــذين اســـتُودِعُوا مُـــثُلاً
كـــذاك كـــلُّ الـــذين اســـتُرهِنوا غَلَقـــا

كـــذاكَ كـــان ومـــا ينفـــكُّ ذو كلـــفٍ
بمـــن تُعبّـــدَ في الـــدنيا أو انعتقـــا

"دمـــشقُ" عِـــشْتُكِ ريعانـــاً، وخافقـــةً
ولمـــةً، والعيـــونَ الـــسودَ، والأرقـــا

وهـــا أنـــا، ويـــدي جِلـــدٌ، وســـالفيّ
ثلـــجٌ ووجهـــي عظـــمٌ كـــادَ أو عُرقـــا

وأنـــتِ لم تبرحـــي في الــنفس عالقـــة

دمـــي ولحمـــي والأنفـــاسَ والرمقـــا

تمـــوجين ظـــلال الـــذكرياتِ هـــوىً

وتُـــسعدين الأســـى والهـــم والقلقـــا

فخـــراً دمـــشق تقاسمنـــا مراهقـــةً

واليـــوم نقتـــسم الآلام والرهقـــا

"دمشقُ" صبراً على البلوى فكم صُهِرَتْ

سبائكُ الـذَّهبِ الغـالي فمـا احترَقـا

علـى المـدى والعُـرُوقُ الطُّهـرُ يَرفـدُها

نَـسْغُ الحيـاةِ بـديلاً عـن دمٍ هُرقـا

وعنـد أَعـوادكِ الخـضراءِ بهجتُهـا

كالـسنديانة مهمـا اسَّـاقطَتْ ورقـا

*****

و"غـابُ خفَّـانَ" زَّئَّـارَ بـه "أَسَـدٌ"

غـضبانَ يـدفعُ عـن أَشـبالهِ حَنِقَـا

يــا "حــافظَ" العهــدِ, يــا طــلاّعَ أَلويــةٍ

تناهَبـــت حلبـــات العـــزِّ مُـــسْتَبَقا

يــا رابــطَ الجــأش, يــا ثَبْتــاً بمُــستَعِرٍ

تآخيــا في شَـــبوبٍ منـــه, والتـــصقا

تزلزلَـــتْ تحتـــه أَرضٌ فَمـــا صُـــعِقا

وازَّخرفــت حولــه دنيــا فمــا انزلقــا

أَلْقـــى بزُقُّومهـــا المـــوبي لمُـــرتَخصٍ

وعـــافَ للمُتهـــاوي ورْدَهـــا الطَّرَقـــا

يــا حاضــنَ الفكــر خلاَّقــاً كــأنَّ بــه

مــن نــسجِ زَهــر الرُّبــى مَوشــيّةً أنقــا

لــك القــوافي ومَــا وَشَّــتْ مطارفُهــا

تُهــدى, ومــا اســتنَّ مُهــديها, ومــا اعتلقــا

مــن "العــراق" مــن الأرضِ الــتي ائتلقــت

و"الــشام" ألفــاً فمــا مــلاَّ ولا افترقــا

يـا "جبهـة المجـد" ألقـت كربـة ظلـلا

مـــن الـــشحوب عليهـــا زدنهـــا ألقـــا

مَـــرَّتْ يَـــدٌ بَـــرَّةٌ فـــوقَ العُـــرُوق بهـــا

تُمـيطُ عنهـا الأسـى، والجَهـدَ، والعرقـا

كمثـــل أرضـــك تمتـــدُّ الـــسماء بهـــا

مهمومـةً ترقـبُ الفجـرَ الـذي انطلقـا

أســـيانةً كـــم تلَقَّـــتْ بـــين أَذرُعِهـــا

نجمـاً هـوى إثـر نجـمٍ صـاعدٍ خفقـا

مَـــصارعٌ تـــستقي الفـــادين تُربتُهـــا

في كـل شـبرٍ مـشى "فـادٍ بهـا وسـقى

يـــا بنـــتَ أُمِّ البلايـــا عانَقَـــت نَـــسَباً

أغلـــى وأَكـــرمَ في الأنـــسابِ مُعتنَقـــا

راحَـــتْ تمـــزِّق كـــل الهـــازئين بهـــا

وحولـــك اسّـــاقطت مهـــزوزةً مزقـــا

كنـــتِ الكفــوءَ لهـــا إذ كنـــتِ مُعترَكـــاً

لـــــسُوحِها, فِرَقـــــاً جَـــــرَّارةً فِرَقـــــا

"تيمــور" خــف و"هولاكــو" وقــد ســحقا

كــلَّ الــدنى وعلـــى أَســوارك انــسحَقا

مــا كنــتِ أعتـــى, ولا أَقــوى ســوى دُفــعٍ

مــن الرُّجُــولاتِ, كانــت عنــدها لعقــا

هُنـــا جـــوارك ذو زمزامَــــةٍ لَجِـــبٍ

أمــسِ استــشاط فــصبَّتْ نــارُهُ صَــعقا

علــى اليهــودِ, وعــادَ اليــومَ مِــن خَــوَرٍ

يمـــدُّ طوعـــاً إلى جَـــزَّارِهِ العُنُقَـــا

حـــبُّ الحيـــاةِ تَغَـــشَّاهُ فكـــان لـــهُ

صـــداقُها الـــذلَّ, والإســـفافَ, والخرَقـــا

تخـــالف الحكـــمُ فـــرداً لا ضـــميرَ لـــه

إذا اســـتدار, ولا نـــاهٍ إذا مرقـــا

ومُجمعـــين تواصـــوا بيـــنهم شـــرَعا

علـى الحفـاظِ، وســاروا أمــرهم طبقــا

*****

"دمشقُ" كم في حنايا الصدر من غصصٍ

لــو لم نــدفها بمُــرِّ الــصَبرِ لاختنقــا

صُــبَّت "ثلاثــونَ" لم تــدرِ الــصباح بهــا

ســودُ الليــالي، ولم تكــشَفْ بهــا أُفقــا

هُنَّـــا عليهـــا فـــشدَّتنا بسلـــسلةٍ

مـــن الكـــوارث لم تـــستكمل الحلقـــا

جاعــت لقحــطِ "مُفــاداةٍ" بهــا وعَــدَتْ

واســتنجدت صــاعَها، والمئــزرَ الحلَقــا

ونحـــنُ نُطعمُهـــا حلـــوَ البيـــانِ رؤىً

والفخـــرَ مُتَّـــشحاً، والوعـــدَ مُرتزَقـــا

شمَمْـــتُ تُرْبَـــكِ لا زُلفـــى، ولا مَلَقـــا

وسِـــرْتُ قـــصدَكِ لا خِبـــاًّ ولا مـــذِقا

عريانــة....

نظمت في عام ١٩٣٢

أنـــتِ تـــدرين أنـــني ذو لُبانَـــهْ   ألهـــوى يـــستثير فيَّ المَجَانَـــهْ
وقـــوافيَّ مثـــل حُـــسنك لمـــا   لَتَعَـــرَيْنَ حـــرَةٌ عُريانـــه
وإذا الحـــبُّ ثـــارَ فـــلا تَمْـــ ـ   ـــنَعُ أيُّ احتـــشامة ثَورانـــه
فلمـــاذا تُحـــاولين بـــأنْ أعـــ ـ   ـــلنَ مـــا يُنكِـــرُ الـــورى إعلانـــه
ولمـــاذا تُهـــيجِين مـــن الـــشا ـ   ـعِـــر أغفـــى إحـــساسُهُ، بركانـــه
لا تقـــولي تجهُـــمٌ وانقبـــاضٌ   بغَـــضا منـــه وَجهَـــه ولـــسانه
فهمـــا ثـــورةٌ علـــى الـــدهر منّـــي   كجَـــواد لا يرتـــضي مَيدانـــه
أنـــا في مجلـــسٍ يـــضمُكِ نـــشوا ـ   ـنُ ســـروراً كـــأنني في حانـــه
لـــو تُحـــسِينَ مـــا أُحـــسُ إذا رجَّـــ ـ   ـفْتِ في الرقص بطنَك الخمصانة

رجلــةً لا تمــسُ مــا بــين رفْغَيــ ــ ــكِ وتُبقي الصدرَ الجميلَ مكانه

والــذراعينِ كــلٌ ريانــةٍ فعــ ــ ــماءَ تُلْقــي في فَعمــةٍ رَيانــه

والثُــدَيينِ كــلٌ رُمانــة فــر ــ عــاءَ تَهــزا بأُختهــا الرُمانــه

عاريــاً ظهــرُك الرشــيقُ تُحــبُ الــ ــ ــعينُ منــه اتــساقَهُ واتزانــه

مــا بــه مــن نحافــةٍ يُستَــشفُ الــ ــ ــعظمُ منهــا ولا بــه مــن سَــمانه

خُــصَ بــالمحض مــن بُلهينــةِ العَيــ ــ ــشِ وأُعطي من الصبا عنفوانه(١)

وتــراه يجــيء بــين ظُهــور الــ ــ ــخُرَّدِ الغيــدِ ســابقاً أقرانــه

إذ تمــيلين يَمنــة ويَــساراً مثلَمــا لاعبــت صــباً خيزُرانــه

عنــدما تبــسِمين فينــا فتفتــ ــ ــرّ الشفاهُ اللطـافُ عـن أُقحُوانـه

إذ يحــار الــراؤون في حُــسنك الفتَّــ ــ ــانِ بــل في ثيابــك الفتَانــه

رُبَّ جــسمٍ تُطــري الملاحــةَ فيــه ثــمَ تعــدوه مُطريــاً فــستانه

مــا بــه مــن نقيــصةٍ وكــأن الــ ــ ــثوب أضحى مُتمِمــاً نُقـصانه

إنَّ كفَــاً قاســت عليــك لباســاً مثــل هــذا مهَــارةٌ شــيطانه

---

(١) البلهنية: الرخاء وسعة العيش.

عَرَفتْ كيف تَبرُزين إلى الجمـ — ـهور فيه لتخلِبي أذهانه

ضيَقت مُلتقى نهودِك والكشْـ — ـحَين منه وشمّرت أردانه

وأشارت إلى اللعوبَيْن بالألـ — ـباب منا بوردةٍ مُزدانه

ليت شعري ما السرُّ في أن بدت للـ — ـعَين جَهراً أعضاؤكِ الحُسانه

واختفى عضْوُك الذي مازَه اللّـ — ـهُ على كل ما لديك وزانه

الذي نال حُظوةً حُرِمالإنْـ — ـسانُ منها وخُصَت الإنسانه

وتمنى على الطبيعة شكلاً — هو من خير ما يكونُ فكانه

وَمَحَلاً خِصباً فحلَ بوادٍ — أنبتَ اللّهُ حولَهُ ريحانه

لم يُرد من بَراه مُتعةَ نَفسٍ — أن يُغطى ولم يُردْ كِتمانه

ككتابٍ كشفت عن صفحَتيْهِ — ثم غطَيت عَنوةً عُنوانه

أو غَديرِ جمِ المسارِبِ عذبٍ — حَرَموه وحلَّلوا شُطآنه

هيكلٌ من هياكلِ اللهِ سُدَّ — البابُ منه وكفَنوا صُلبانه

المقصورة

بـــرغم الإبـــاء ورغـــم العُلـــى ورغـــم أنـــوف كِـــرام المــــلا

ورغـــم القلـــوبِ الـــتي تـــستفيـ ـــض عَطفاً تحوطُـكَ حَوْط الحمـى

وإذ أنـــت ترعـــاكَ عـــينُ الزمـــانِ ويَهفُـــو لجَرْسِـــكَ سمـــعُ الـــدُنى[1]

وتلتـــفُ حولَـــكَ شـــتَى النُّفـــوسِ تَجـــيشُ بـــشتَّى ضـــروب الأســـى

وتُعـــرِبُ عنهـــا بمـــا لا تُـــبين كأنـــك مـــن كـــل نفـــسٍ حـــشا

فأنـــتَ مـــع الـــصبحِ شَـدْوُ الرعـــاةِ وحلـــمُ العـــذارى إذا الليـــلُ جـــا

وأنـــت إذا الخطـــبُ ألقـــى الجِـــرانَ وحـــــطَّ بكلكلـــــهِ فـــــارتمى[2]

ألَحْـــتَ بـــشِعرك للبائـــسين، بـــداجي الخُطـــوبِ، بَريـــقَ المُنـــى

بـ "علقمـةَ الفحلِ" أزجـي اليمين أنـــــي ألّـــــذُّ بمُـــــرِّ الجنـــــى[3]

وبـــ "المتنبـــىءِ" أنَّ الـــبَلاءَ، إذا جـــدَّ، يَعلـــم "أنّـــي الفتـــى"[4]

---

(١) الجرس: الصوت الخفيف، والنغم.

(٢) جران البعير: رقبته. وكلكله: صدره. وألقى جرانه وحط كلكله: برك وأناخ.

(٣) علقمة الفحل والشنفرى: شاعران جاهليان عرف عنهما قشوبة العيش وصلابة العود.

(٤) إشارة إلى بيت المتنبي في مقصورته:

لـــتعلم مـــصرَ ومـــن بـــالعراق ومـــن بالعواصـــم أنـــي الفتـــى

ألا من كريمٍ يَسُرُّ الكرامَ   بحيفةِ جلْفٍ زَنيمٍ عَتَا[1]

فيا طالما كانَ جدُّ البَغيِّ   يُخفِّفُ من فحشِ أهلِ البغا

ويا طالما ثُنيَ السادِرونَ   بما اقتيدَ من سادرٍ ما ارعوى[2]

على أنه من شِفاءِ الصُدو ـ   ـرِ لو أنَّ حُراً كريماً شفى

تأصلَ هذي العروقَ الخِباثَ   فقد ساقَ بالجذْمِ منها الثرى[3]

أنبيك عن أطيب الأخبثينِ   فقُلْ أنتَ بالأخبثِ المُزدرى

رفاقٌ من الريحِ منفوخةٌ   وإن ثَقَّلَ الزهوُ منها الخطى[4]

وأشباحُ ناسٍ، وإنْ أُوْهموا   بأنّهمُ: "قادةٌ" في الورى

ألمْ ترَ أنيَ حربُ الطغا ـ   ـةِ سلمٌ لكلِ ضعيفِ الذَما[5]

وأني تركتُ دهيَ السِبالِ،   كثيرَ الصيال، شديدَ القوى[6]

من الخوفِ كالعَيْر قبلَ الكوا ـ   ـءِ يَحبقُ مما اصطلى واكتوى[7]

---

(١) الجلف: الرجل الحقير الجافي الطبع. الزنيم: الملحق بالقوم وليس منهم.

(٢) السادر: اللاهي العابث، الذي يعيش بلا هدف.

(٣) جذم الشجرة: جذرها.

(٤) زقاق: جمع زق وهو الجراب.

(٥) الذما: بقية الروح.

(٦) السبال: اللحى، والواحدة سبلة.

(٧) العير: الحمار. الكواء: اسم من كوى يكوي كالشواء من شوى يشوي. يحبق: يضرط.

بمـــاذا يخـــوِفني الأرْذلُـــونَ ومـــمَ تخـــافُ صِـــلالُ الفـــلا؟

أيُـسْلبُ عنهـا نعـيمُ الهجـيرِ، ونفـحُ الرمـالِ، وبـذْخُ العـرا؟

بلـى ـ إنَّ عنـديَ خـوفَ الـشُجاعِ وطـيشَ الحلـيمِ، ومـوتَ الـرَّدى

إذا شئتُ أنـضجتُ نَـضجَ الـشِواء جلـوداً تعـصَتْ فمـا تُـشتوى

وأبقيـتُ مـن ميـسمي في الجبا ـ ـهِ وشْماً كوَشمِ بنـاتِ الهـوى[1]

فـوارقُ لا يَمَحـي عـارهُنَّ ولا يلْتبسْنَ بوصـفٍ "سـوى"ـ

بحيـثُ يُقـالُ إذا مـا مـشى الـصَّ ـ ـليُ بهـا: إن وغـداً بـدا[2]

وحيـثُ يُعيَّـرُ أبنـاؤه بـأن لهُـمْ والـداً مثـلَ ذا

أقـولُ لنفـسي ـ إذا ضـمها وأترابهـا محفِـلٌ يُزدهـى:

تـسامَيْ فإنـكِ خـيرُ النفـوسِ إذا قـيسَ كـل علـى مـا انطـوى

وأحـسنُ مـا فيـكِ أن "الـضمير" يَـصيحُ مـن القلـبِ إنـي هُنـا

تـسامَيْ فـإن جناحيـكِ لا يَقَـرَانِ إلا علـى مُرتقـى

كـذلك كـل ذواتِ الطِمـا ـ ـحِ والهـم، مخلوقـةٌ للـذُرى

شـهِدتُ بأنـكِ مـذخورةٌ لأبعـدَ مـا في المـدى مـن مـدى

وأنّـكِ سـوفَ تـدوي العـصورُ بمـا تتركـينَ بهـا مـن صـدى

(١) الميسم: اسم آلة يوسم بها.

(٢) الصلي: المرسوم بالميسم.

بآيـــــةِ أنَّ يـــــدَ المُغريـــــاتِ تَهابـــكِ إلاَّ كَلمـــسِ النـــدى
وأنّـــك إنْ يَلتمـــعْ مطمـــعٌ يُخـافُ علـى الـروحِ منـه العمـى
يمـــوتُ "النبـــوغُ" بأحـــضانه ويُنعـــى بـــه "الأمـــل" المرتجـــى
وتمـــشي الجمـــوعُ علـــى ضـــوئهِ لتبكـــي علـــى عبقـــري قـــضى
وكـــادتْ تلُفَّـــكِ في طيهـــا حَواشـيه... رَدتـكِ كـف القـضا[1]
لـــشرِ النهايـــاتِ هـــذا "المطـــافُ" وكُـــل مَطـــافٍ إلى مُنتهـــى
متـــى ترعَـــوي أمـــةٌ بـــالعراقِ تُـــساقُ إلى حتفهـــا بالعـــصا
تُـــذرَى علـــى الـضيْمِ ذَرْوَ الهـشيمِ ويَعرقُهـــا الـــذُل عـــرْقَ اللِحـــا[2]
وتنـــزو بهـــا شـــهوةُ المـــشتهينَ كمـــا دُحرِجـــت كُـــرةٌ تُرتمـــى
يُجِـــدُّ بَغـــيضٌ بهـــا عهـــدهُ إذا قيـــلَ عهـــدٌ بَغـــيضٍ مـــضى
وتـــسمَنُ منهـــا عِجـــافٌ مَـــشَتْ إلى الأجـــنبيِ تَجُـــرُّ الخُـــصى
تـراودُهـــا عزَّهـــا كـــالقُرومِ هَجـــانٌ عليهـــا غريـــبُ نَـــزا[3]
عجبـــتُ وقـــد أســـلمتْ نفـــسَها لعَـــركِ الخُطـــوبِ وعَـــصْرِ الـــشِقا
وقَـــرَّ علـــى الـــذل خيـــشومُها كمـا خطـمَ الـصعب جَذبُ البُـرى[4]

(١) ردك: جواب شرط (إن) في قوله وأنك إن يلتمع مطمع.

(٢) عرق العظم: أزال ما عليه منت لحم. واللحاء: قشر جذع الشجرة.

(٣) القروم: السادة: واحدها قرم. الهجان: جمع هجين وهو الذي ولد من أبوين مختلفين في الجنس.

(٤) قر على الذل: خضع للذّل. والخيشوم: أعلى الأنف. البري: جمع برة، وهي الخزامة وحلقة تجعل في أنف البعير الصعب القياد لينقاد. وخطم: ههنا بمعنى أذل وأخضع.

وأغْفــتْ فلــم أَدْرِعــنَ حَــيرةٍ بهــا: كيــف إيقاظُهــا أو متــى؟
ولم أدرِ مــن طيــبِ إغفائهــا علــى الــذُل، أيَّ خيــال تَــرى
أهِمَّـــاً تغـــشاهُ بعْـــدَ العنـــا كــرىْ، أمْ صــبيّاً بريئــاً غفــا؟[1]
متــى تــستفيقُ وفحــمُ الــدُجى عليهــا مــشتْ فيــه نــارُ الـضحى؟
وأصـــنامِ بَغْـــي يـــصبُونها ويَـــدْعُونها مَـــثلاً يُقتـــدى
يُـــثيرونَ مـــن حولهـــا ضَـــجةً بهـــا عـــن مَخـــازيهمُ يُلتهـــى
كمــا حَجَبَــتْ بالغُبــارِ العيــون خِفـــافٌ مُهـــرّأةٌ تُحتـــذى[2]
فهــذا سيَمــضي، وهــذا مــضَى وهـــذا ســـيأتي، وهـــذا أتـــى!!
وهـــذا "زعـــيمٌ"، لأن "الـــسفيـ ـــرَ" يرنـــو إليـــهِ بعـــينِ الرضـــا
وفي ذاكَ عــن سُـخطِ أهــل الـبلادِ علــى حُكمــهِ أو رضــاهم غِنــى
وهـــذا بعِمتـــهِ، ســـاحرٌ، مـــن "الجـــنِ" يَرفعُهـــا للعلـــى
تَطُـــق المـــسابحُ مـــن حولهـــا لـــتُعلنَ أن ملاكـــاً أتـــى
تجـــيءُ المطـــامعُ منقـــادةً إليـــه إذا شـــاءَ أو لم يَـــشا
وليتـــك تحـــسِبُ أزيـــاءَهم فتجمـــعَ منهـــا زهـــورَ الربـــى
فتلـــك اللفـــائفُ كـــالأُقحوانِ بهــا العلــمُ يــنفحُ طيــبَ الــشذا!

---

(١) الهم: الشيخ الكبير.

(٢) خفاف: جمع خف. ومهرأ: ممزقة بالية.

وتلــكَ الــشراشفُ كالياسميــ ــنِ تــاهَ "العِقــالُ" بهــا وازدهــى!

تَــدلَتْ عناقيــدُ مثــلُ الكــرومِ على كتفــيّ "يـابس" كالـصُوى[1]

يَــوَدُّ مــن "التيــهِ"! لــو أنــه يَــشُدُّ بهــا "جَرَســاً"! إنْ مــشى

لـــيعلمَ ســامعُهُ أنــــه "ينــوبُ"! عــن البلــدِ المُبتلــى

إذا رفَــعَ اليــدَ للحــاكمينَ بَــدَتْ "نَعَــمٌ" وَهْــيَ في زيِ "لا"!

وبينهمـــا محـــدَثٌ ناشـــئٌ إذا خـــطَ تَعرفــه أو حَكــى

تعـــوِّذه أُمـــه إنْ مـــشى إلى "البرلمـــان" بـــأُمِ القُــرى[2]

ومُستــسلمين يَــرونَ الكفــا ــحَ قَــوراء مــدحورةً تُمتطــى[3]

فتُغـــرزُ في رَخـــوةٍ سَـــمحةٍ وتنفِــر عــن ذي مِــسَن قَــسا

يَــرَوْنَ الــسياسةَ أنْ لا يَمــسَّ هـــذا، وأن يُتقـــى شـــر ذا

وهـــذا وذا في صـــميمِ الــبلا ــدِ سُــلِ، وفي العــينِ مِنهــا قــذى

مــساكينُ يقتحمــونَ الكفــاحَ وقــد شــرعتْ بابُــه مــن كُــوى[4]

---

(١) الصوى: العلامات التي توضع في الطريق لتدل السائرين. ويريد بالعناقد ما تدلى من خيوط "العقال"!.

(٢) أم القرى: مكة.

(٣) قوراء: مستديرة.

(٤) الكوى: جمع كوة وهي النافذة الصغيرة.

ومنــــتحلينَ سمــــاتِ الأديـــبِ يظنُونهـــــا جُببـــــاً تُرتــــدى

كمــا جاوبــتْ "بُومــةٌ"! بُومــةً تَقـــارَضُ مـــا بينهـــا بالثَنـــا

ويرعَـــــونَ في هــــذَرِ يــــابسِ مــن القــولِ، رعــيَ الجمــال الكـلا[1]

يُــــرَوْنَ "وُرَيقـــاتهم" بُلغـــةً مــــن العــــيشِ لا غايـــةً تُبتغــى

فَهُــمْ والــضميرُ الــذي يــصنعونَ لمــــنْ يعتلــــي، صـــهوةٌ تعتلــى

ولاهِــينَ عــن جَــدِهم بــالفراغِ زوايـــا المقـــاهي لهـــم مُنتـــدى

وعـــارٍ تحلَّـــى بثـــوب الأديـــب وممـــا يُزكـــي أديبـــاً خَـــلا

ومـــن تبعـــات النفـــوسِ الكبـــار بــسِنِ اليَــراع الــرخيص احتمــى

ووغــــدٍ تخـــيرَ أمثالَـــه فوغـــداً أهـــرَ، ووغـــداً شـــلا[2]

يقولـــونَ إنَّ يـــداً في الغُيـــوبِ تــديرُ علــى الأرضِ حُكــم الــسَما

ولمـــا يَـــزلْ مثـــلٌ ســـائرٌ علـى النــاسِ يَجـري: بأيـدي سـبا

وتحريـــقُ "لـــوطٍ" بـــذنبٍ أتـــى وأخـــذُ "ثمـــودٍ" بـــسقبٍ رغـــا[3]

فمــا بــالُ كـفِّ القــضا لا تــدور علـــى بلـــدٍ ظـــلَّ حتـــى اختـــزى؟!

وأضـــحى "ثمـــودٌ" و"لـــوطٌ" بـــه ومَـــن لهمـــا مـــن بالـــشرورِ انتمـــى

---

(١) الكلأ: الحشيش.

(٢) أهر الكلب وشلاه: أغراه على التحرش والاعتداء.

(٣) السقب: ولد الناقة. والرغاء: صوت البعير.

ومــن عــاشَ في أُمــمِ المــشرقَينِ وجــارَ علــى أهلــها واحتمــى
حَيــيّنَ بــينَ ولاة الأُمــو ــ رِ في بلــدٍ ضــاعَ فيــه الحيــا
يُــسائلُ بعــض بــه بَعــضهم أنحــنُ أُخــذنا وهــذا نجــا؟!
أُخِــذتُ لأنــي ربــتُ الطريــقَ "شــذاً" إلى غايــةٍ تُبتغــى
وأنــتَ أُخــذت علــى ناقــةٍ بفَلْــسينِ أمثالُهــا تُــشترى
وجَــدنا هُنــا كــلَّ ذي عَــورةٍ علــى كـل ذي حُرمــةٍ قــد سـطا
وكــلَّ كــريمِ الثَنــا أصــيدٍ تقلــصَ في كِنَــةٍ وانــزوى[1]
هناك وجَدنا الرجالَ هُنا "الرجا ــ ل" لاهــينَ، في وَضَــحٍ مــن سَــنا!!
علــى حــينَ تخــتصُّ نِــسوانهم "نــساءٌ"، ومنتــصِفٌ مــن جــزى!!
وجَدنا الـزعيمَ ـ كما يَنْعَتونَ ـ علــى قــدميْ غاصــبيهِ ارتمــى
بَــنيَّ إذا الــدهرُ ألقــى القنــاعَ وصــرَح مــن حَــسوهِ مــا ارتغــى
ودالــتْ لهــمْ دولــةٌ كــالتي لــدى النــاس في وجههــا والقفــا
فــلا تبخلــوا أنْ تــزوروا أبــاً جريرتُــه أنَّ ذُلاً أبــى
ولا تبخلــوا أنْ تَمُــدوا يــداً لتحــضِنَ منــه خيــالاً سَــرى
وطيفــاً أتــاكمْ يُهنِــيكمُ بــأنْ قــد وُقيــتمْ زمانــاً مــضى

---

(١) الأصيد: السيد الكريم.

وشـــرٌّ "الـــسهامِ" رُواءُ النعـــيم وشـــر "النـــضال" بريـــق الغِنـــى[1]

ســـلامٌ علـــى هـــضباتِ العـــراق وشـــطيهِ والجُـــرفِ والمُنحنـــى

على النَخْلِ ذي السَعَفاتِ الطوالِ علـــى ســـيدِ الـــشجرِ المُقتنـــى

علـى الرطـبِ الغَـضِ إذ يُجتلـى كَوَشْـــيِ العـــروسِ وإذ يُجتنـــى

بإيـــساره يـــومَ أعذاقُـــه تـــرفُّ، وبالعـــسرِ عنـــدَ القنـــى[2]

وبالـــسَعفِ والكَـــرب المُـــستجـ ـــدِّ ثوبـــاً "تهـــرّا" وثوبـــاً نـــضا

ودجلـــــة إذْ فـــــارَ آذِيُهـــــا كمـــا حُـــمَّ ذُو حَـــرَدٍ فـــاغتلى[3]

ودجلـــةَ تمـــشي علـــى هَونهـــا وتمـــشي رُخـــاءً عليهـــا الـــصَبا

ودجلـــة زهـــوِ الـــصَبايا المـــلاحِ تُخَـــوَّضُ منهـــا بمـــاء صـــرَى[4]

تُريـــكَ العراقـــيَّ في الحالتيـــ ـــنِ يُـــسرفُ في شُـــحهِ والنَـــدى!

ســـلامٌ علـــى قمـــرِ فوقهـــا عليهـــا هَفـــا وإليهـــا رَنـــا

تَدغـــدِغُ أضـــواؤُهُ صَـــدْرها وتَمـــسحُ طياتِهـــا والثِنـــى[5]

---

(١) إذا أُحيط الإنسان بالنعيم أو لوحوا له بالغنى ولم يكن صلباً في النضال تخاذل وفتر، فالنعيم والغنى شر السهام وشر النصال.

(٢) أي سلام عله في حالة إيساره بإغداقه الرأفة وفي حالة إعساره إذ قنواته متعثكلة يابسة.

(٣) آذى البحر أو النهر: ماؤه الكثير "المواضع العميقة". ذو حرد: صاحب ثأر، يشبه دجلة في تدفق مياهها الفوارة بصاحب ثأر يغلي غضبا؟.

(٤) ماء صرى: وشل بقية ماء.

(٥) الثنى: بالكسر جمع ثنية وهي الطية.

كـــأنَّ يـــداً طـــرَزَتْ فوقهـــا   مـــن الحُـــسنِ مَوشـــيةً تُجتلـــى
رواءُ الـــنميرِ لهـــا لُحمـــة   وذَوبُ الـــشعاعِ عليهـــا سَـــدى
ونجـــمٌ تَغـــورَ مـــن حبهـــا   ونجـــمٌ عليهـــا ادَنـــى فـــادَّلى
على الجسرِ ما انفك من جانبيه   يُتـيحُ الهَـوى مـن عيـونِ المهـا[1]
فيـــا ليـــتَهن الـــذي يعتـــدى   ويـــا ليتـــكَ الرجـــلُ المُعتـــدى
ويـا ليـتَ بلـواكَ قُـبَّ الـصدورِ   ولعـسُ الـشفاهِ، وبـيضُ الطُلـى
سـلامٌ علـى جـاعلاتِ النَقيـقِ،   علـى الـشَاطئينِ، بريـدَ الهـوى
لُعـنتنَّ مـن صِـبيةٍ لا تـشيخُ   ومـن شِـيخةٍ دَهرَهـا تُـصطبى
سـجا الليـلُ إلا حمامـاً أجـدَّ   هـديلاً وترجيـعَ كلـبٍ عَـوى[2]
وجُندُبـةً طارحَـتْ جُنـدُباً   وبُومـاً زقـا وسـحيلاً ثغـا[3]
وديكـاً يـؤذِنُ في جَمعهـم   بـأن قـد مـضى الليـلُ إلا إنـى[4]
سـلامٌ علـى عـاطراتِ الحقـول   تنـاثرُ مـن حـولهن القُـرى

---

(١) يشير بهذا البيت إلى بيت علي بن الجهم:

عيـون المهـا بـين الرصـافة والجـسر   جلـبن الهـوى مـن حيـث أدري ولا أدري

(٢) قب الصدور: مرتفعات الصدور، والواحدة قباء، وأقب للمذكر، لعس الشفاه: حمرة الشفاه المائلة إلى السمرة والطلى: الرقاب، والواحدة طلية.

(٣) الجندب: الصرصر. وسحيل: الثعلب.

(٤) إنى: بقية قليلة.

ويااللَطافــــةِ هــــذي الــــدُنى يُتمِمهــا لُطــفُ تلــكَ القُــصى

وحبــــلِ ضـــياء تــــدلى بــــه علـــى أُفـــقِ أفـــقٌ والتقـــى

ســــلامٌ علــــى بلـــدٍ صٌـــنته وإيـــايَ مـــن جفـــوةٍ أو قِلـــى[1]

كلانـــا يكابـــدُ مُـــرَّ الفـــراقِ علـــى كبـــدَينا، ولَـــذْعَ النـــوى

وكـــــل يُغِـــــذُ إلى طِيـــــة لنـــا عنـــد غايتهـــا مُلتقـــى[2]

غـــداً إذ يطـــنٌ فـــضاءُ العـــراقِ طـــنينَ الثـــرى مـــن هزيـــزٍ خَـــلا[3]

وإذ يـــــستقلٌ بــــضبعي فتــــىً يَرى الغُنمَ في العيشِ كسبَ الثنا[4]

ويقـــدرُ إن ضـــم منـــه اليديـــ ـــ ـــنِ أيَّ ثمـــين نفـــيسِ حَـــوى[5]

غـــداً إذ فريـــقٌ يحـــوزُ الثنـــا يعَـــضُّ فريـــقٌ بـــصمِ الـــصفا

١٩٤٧

---

(١) القلى: الكره والبغض.

(٢) أغذ السير: أسرع إلى طية: إلى نية يقصد إليها.

(٣) يطن: يصفر أي يخلو.

(٤) الضبع: العضد، ويستقل بضبعي أي يتعلق بها.

(٥) يقدّر الشيء: يعرف قدره وفي القرآن: (وما قدروا الله حق قدره)

آمنت بالحسين

- ألقاها الشاعر في الحفل الذي أقيم في كربلاء يوم ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤٧، لذكرى استشهاد الحسين.
- نشرت في جريدة "الرأي العام"، العدد ٢٢٩ في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٤٧.
- كتب خمسة عشر بيتاً منها بالذهب على الباب الرئيسي إلى الرواق الحسيني.

فِــداءٌ لمثــواكَ مــن مَـضْجعِ　　　تَنَـــوَّرَ بـــالأبلج الأروَعِ[1]

بــأعبقَ مــن نَفحــاتِ الجنـا　　　ــن رَوحــاً، ومــن مـسكها أضـوع[2]

ورَعيــاً ليومــكَ يــومِ "الطُفـوف"　　　وسَــقياً لأرضــكَ مــن مَـصرع[3]

وحُزنــاً عليـك بحـبْس النُفـوس　　　علــى نهجــك الــنير المهْيَــع[4]

وصــوتاً لمجــدك مــن أنْ يُــذال　　　بمــا أنــتَ تأبــاهُ مــن مبــدَع[5]

---

(١) الأبلج: الوضاء الوجه. والأروع: المعجب بشجاعته أو حسنه.

(٢) الروح هنا نسيم الريح. و"ضاع" من ضاع المسك يضوع إذا عبقت رائحته.

(٣) الطفوف: هي الأراضي المشرفة من جوانب الشاطئ، وهي تطلق بصورة خاصة على ما أشرف من أراضي "الغاضرية" ـ وهي مدينة كربلاء الآن ـ على نهر الفرات وفيها كان مصرع الحسين الشهيد وآله وأبنائه.

(٤) المهيع: البين الواضح.

(٥) يذال: يهان. المبدع بفتح الدال من "البدعة".

فيـــا أيُّهـــا الـــوِتْرُ في الخالدِيـــ ـــ ـــنَ فـــذاً، إلى الآنَ لم يُـــشْفَع
ويـــا عِظــةَ الطــامحينَ العِظــامِ   للاهـــينَ عـــن غـــدهمْ قُنَّـــع
تعاليـــتَ مـــن مُفْـــزِع للحُتـــوف   وبُـــوركَ قـــبرُك مـــن مَفـــزَع
تلـــوذُ الـــدهورُ فمـــنْ سُـــجَّدٍ   علـــى جانبيـــه ومـــنْ رُكَّـــع
شَـــممتُ ثـــراكَ فهـــب النـــسيمُ   نـــسيمُ الكرامـــةِ مـــن بَلقـــع
وعفّـــرتُ خـــدي بحيـــثُ استـــرا ـــ حَ خـــدٌّ تفـــرّى ولمْ يَـــضرع
وحيـــثُ سـنابكُ خيـــل الطُّغـــا ـــ ةِ جالـــتْ عليـــهِ ولم يَخـــشع
وخلـــتُ وقـــد طـــارت الـــذكريات   بروحـــي إلى عـــالم أرفـــع
وطفـــتُ بقـــبركَ طـــوفَ الخيـــال   بـــصومعةِ الملـــهمِ المبـــدع
كـــأنَّ يـــداً مـــن وراء الـــضر ـــ يـــحِ حمـــراء مبتـــورة الأصـــبع
تمـــدُّ إلى عـــالم بـــالخنو ـــ عِ والـــضيمِ ذي شـــرَقِ مُـــترع
تخـــبّطَ في غابـــةٍ أطبقـــتْ   علـــى مـــذئبٍ منـــه أوْ مُـــسْبع
وتـــدفعُ هـــذي النفـــوس الـــصغا ـــ رخوفـــاً إلى حـــرمٍ أمنـــع
تعاليـــتَ مـــن صـــاعقٍ يلتظـــي   فـــإنْ تَـــدجُ داجيـــةٌ يَلمـــع

تـــأرُمُ حقــداً علـــى الــصاعقاتِ		لم تُـــنْء ضَــيراً ولـــن تَنْفـــع[1]

ولم تبــذُرِ الحــبَّ إثــرَ الهــشيم		وقـــــد حرَقتـــــهُ ولم تَـــــزرع

تعاليـــتَ مـــن "فلـــك" قُطْـــرهُ		يـــدورُ علـــى المحـــورِ الأوســـع

فيــا بــنَ "البتــول" وحــسْبي بهــا		ضـــماناً علـــى كـــل مـــا أدعـــي

ويــا بــنَ الــتي لم تَــضعْ مِثلُهــا		كمِثلـــكَ حَمـــلاً ولم تُرْضـــع

ويـــا بـــنَ الـــبطينِ بـــلا بطنـــةٍ		ويــا بــن الفتــى الحاســر الأنــزع[2]

ويــا غُــصنَ "هاشــمَ" لم ينفَــتح		بـــأزهرَ منـــك ولم يُفْـــرعِ[3]

ويــا واصــلاً مــن نــشيدِ "الخُلــود"		ختـــامَ القـــصيدة بـــالمطلع

تمثَلـــتُ "يومـــكَ" في خـــاطري		وردَّدت "صـــوتَك" في مَـــسمعي

ومَحَّـــصتُ أمـــركَ لم "أرتهـــبْ"		بنقـــلِ "الـــرواةِ" ولم أُخـــدع

وقلـــتُ: لعـــل دويَ الـــسنين		بأصـــداء حادِثِـــكَ المُفجـــع

ومـــا رتـــلَ المُخلـــصونَ الـــدعا ــ		ةُ مـــن "مُرســـلينَ" ومـــن "سُـــجع"

أريـــد "الحقيقـــةَ" في ذاتهـــا		بغـــيرِ الطبيعـــةِ لم تُطبـــع

---

(١) التأرم: حك الأسنان بعضها للعض من الغيظ، أي أنك تتحرق إذ ترى الصاعقات لا تدفع ضراً ولا تجلي نفعاً.

(٢) البطنة: النهم. الأنزع: من انحسر الشعر على جانبي جبهته. وكان يقال للإمام علي "الأنزع البطين".

(٣) لم تنون "هاشم" للضرورة فجرّت بالفتحة.

وجـــــدتُكَ في صُـــــورةٍ لم أرَعْ   بـــــــأعظم منهـــــا ولا أرْوَع
ومـــــاذا! أأرْوِعُ مـــــنْ أن يكـــو   ـ نَ لحمُـــكَ وَقْفــاً علـــى المِبـــضع
وخـــيرَ بـــني "الأمِّ" مـــن هاشـــم   وخـــيرَ بـــني "الأب" مـــن تُبَـــع
وخـــيرَ الـــصحاب بخـــيرِ الـــصدو   ـ رِ، كـــــانوا وِقـــــاءكَ، والأذْرِع
وآمنـــتُ إيمـــان مـــن لا يَـــرى   سِوى (العقل) في الشك من مَرْجع
بـأن (الإبـاء)، ووحـي الـسماء،   وفـــيضَ النبـــوة، مـــن مَنْبـــع
تجمَـــع في (جـــوهر) خـــالصِ   تَنـــزَّهَ عـــن (عـــرضِ) المَطْمـــع

يا دجلة الخير

- براغ عام ١٩٦٢م

حَيَيتُ سفحَكِ عن بُعدٍ فحييني ... يا دجلةَ الخيرِ، يا أُم البساتين

حييتُ سفحك ظمآناً ألوذُ به ... لوذَ الحمائمِ بين الماء والطين

يا دجلةَ الخيرِ يا نبعاً أفارقهُ ... على الكراهةِ بين الحين والحين

إني وردتُ عُيونَ الماء صافية ... نَبْعاً فنبعاً فما كانت لتَرْويني

وأنتَ يا قارباً تَلْوي الرياحُ به ... لَيَّ النسائم أطرافَ الأفانين

وددتُ ذاك الشراعَ الرخص لو كفني ... يُحالُ منه غَداةَ البَين يَطويني

يا دجلةَ الخيرِ: قد هانت مطامحُنا ... حتى لأدنى طماحٍ غيرُ مضمون

أتَضمنين مَقيلاً لي سواسيةً ... بين الحشائشِ أو بينَ الرياحين؟

خِلْواً من الهمِ ألاّ همَّ خافقةً ... بينَ الجوانحِ أعنيها وتَعنيني

تَهُزني فأُجاريها فتدفعُني ... كالريح تُعجل في دفع الطواحين

يا دجلةَ الخير: يا أطيافَ ساحرةٍ ... يا خمرَ خابيةٍ في ظل عُرْجون

يا سكتةَ الموتِ، يا إعصارَ زوبعةٍ ... يا خنجرَ الغدرِ، يا أغصانَ زيتون

يا أُم بغدادَ، من ظَرفٍ، ومن غَنَج ... مشى التبغدُد حتى في الدهاقين

يا أُم تلك التي من "ألفِ ليلتها" لـلآن يعبق عطرٌ في التلاحين
يا مُستَجمَّ "النواسيِّ" الذي لبستْ به الحضارةُ ثوباً وشيَ "هارون"
الغاسلِ الهمَّ في ثغرٍ، وفي حَبَبٍ والمُلبسِ العقلَ أزياء المجانين
والساحبِ يأباه الزِقُّ ويُكرِهُهُ والمُنْفِقِ اليومَ يُغدى بالثلاثين
والراهِنِ السابريَ الخزَّ في قدحٍ والملهمِ الفن من لهوٍ أفانين
والمُسمعِ الدهر، والدنيا، وساكنها قرْعَ النواقيسِ في عيدِ الشعانين
يا دجلةَ الخير: ما يُغليكِ من حَنَقٍ يُغلي فؤادي: وما يُشجيكِ يشجيني
ما إن تزالُ سياطُ البغي ناقعة في مائِكِ الطهْرِ بين الحين والحين
يا دجلةَ الخير: أدري بالذي طفحت به مجاريك من فوق إلى دون
أدري على أي قيثارٍ قد انفجرت أنغامكِ السمر عن أنات محزون
أدري بأنكِ من ألفٍ مضتْ هَدراً لـلآن تَهْزينَ من حكم السلاطين
يا دجلةَ الخير: والدنيا مُفارقةٌ وأيُّ شر بخيرٍ غيرُ مقرون
وأي خيرٍ بلا شر يُلقحه طهرُ الملائك من رجس الشياطين
يا دجلة الخير: كم من كنزٍ موهبةٍ لديك في "القُمقُم" المسحورِ مخزون
لعلَ تلك العفاريتَ التي احتُجزتْ مُحمَّلاتٌ على أكتاف "دُلفين"
لعل يوماً عصوفاً جارفاً عَرِماً آتٍ فترضيك عقباه وترضيني

يــا دجلــةَ الخــير: مــن كــل الألى ... بلــوايَ لم ألــفِ حتــى مــن يواســيني

يـا دجلـة الخـيرِ: خلـي المـوجَ مُرتفعـاً ... طيفــاً يمــر وإن بعــضَ الأحــاديين

وحمليـــه بحيـــثُ الـــثلجُ يغمرنـــي ... دفء "الكـوانين" أو عطـر "التـشارين"

واهـاً لنفسي مـن جميـع النقيض بهـا ... نقيــضَه جمْــعَ تحريــكٍ وتــسكين

جنبـــاً إلى جنـــب آلامٍ أقطِّفهـــا ... قطْـفَ الجيـاع جَنـى اللـذاتِ يزهـوني

وأركـــبُ الهـــوْلَ في ريعـــان مأمنـــةٍ ... حــب الحيــاة بحــب المــوتِ يُغــريني

غُــولاً تــسنَمتُ لم أســأل أكارعــه ... إلى الهـوى، أمْ علـى الواحـات تـرميني

ومــا البُطــولاتُ إعجــازٌ وإنْ قنِعــت ... نفــسُ الجبــانِ عــن العليــاء بــالهون

وإنمــا هــي صــفوٌ مــن مُمارســةٍ ... للطارئـــاتِ، وإمعـــانِ، وتمـــرين

لا يُولــدُ المــرءِ لا هِــراً ولا ســبعاً ... لكـــن عـــصارة تجريـــبٍ وتلقـــين

يــا دجلــةَ الخــير: شــكوى أمرُهــا ... إن الــذي جئـت أشـكو منـه يـشكوني

مـاذا صـنعتُ بنفـسي قـد أحقْـتُ بهـا ... مـا لم يُحقْهُ بـ "رومـا" عـسفُ "نيرون"

ألزمتهـا الجـدَ حيـثُ النـاسُ هازلـة ... والهــزل في موقــفٍ بالجــد مقــرون

يا دجلةَ الخير: هل في الشك منجلياً ... حقيقـــةٌ دون تلمـــيح وتخمـــين؟

أم خولطـــت فيـــه أوهـــامٌ وأخيلـــةٌ ... كمـا تخالطـت الألـوانُ في الجـون

أقــول: ليــت كفافــاً والكفــافُ بــه ... رُحـــبُ الحيـــاة، وأقـــواتُ المـــساجين

أقـــولهُنَّ وعنـــدي علـــم ذي ثقـــةٍ　　أنْ لـــيس يُؤخَـــذَ علـــمٌ بالأظـــانين
وإنمـــا هـــي نفـــسٌ هـــمٌّ صـــاحبها　　أن لا تـــصدق مـــدحوض الـــبراهين
لم يوهـــب الفكـــرُ قانونـــاً يُحـــصِنه　　مـــن الظنـــونِ، ومـــن سُـخف القـوانين
يـــا نـــازحَ الـــدارِ نـــاغِ العـــودَ ثانيـــةً　　وجُـــسَّ أوتـــارهُ بـــالرفقِ واللـــين
لعـــل نجـــوى تُـــداوي حـــر أفئـــدة　　فيهـــا الحـــزازاتُ تغلـــي كـــالبراكين
ويـــا ضـــجيعَيْ كـــرىً أعمـــى يلُفهمـــا　　لـــف الحبيـــبين في مطمـــورةٍ دُون
حـــسبي وحـــسبكما مـــن فرقـــةٍ وجـــوى　　بـــلا عـــجِ ضَـــرمٍ كـــالجمرِ يكـــويني
لم أعـــدْ أبـــوابَ ســـتين، وأحـــسبني　　همـــاً وقفـــتُ علـــى أبـــوابِ تـــسعين
يـــا صـــاحبيَّ إذا أبـــصرت طيفكمـــا　　يمـــشي إلـــيَّ علـــى مهـــلِ يحييـــني
أطبقـــتُ جَفنـــاً علـــى جَفـــن لأبـــصره　　حتـــى كـــأن بريـــقَ المـــوتِ يُعـــشيني
إنـــي شَـــممتُ ثـــرىً عفنـــاً يـــضمكما　　وفي لُهـــاثي منـــه عطـــرُ "داريـــن"
لقـــد وددتُ وأســـرابُ المنـــى خُـــدع　　لـــو تـــسلمان وأن المـــوت يطـــويني
قـــد مـــتُّ سبعينَ موتـــاً بعـــد يومكمـــا　　يـــا ذلَّ مـــن يـــشتري موتـــاً بـــسبعين
أقـــول صـــبراً علـــى شـــجوٍ يرمـــضُني　　حـــران في قفـــص الأضـــلاع مـــسجون
تـــصعدتْ أهِ مـــن تلقـــاء فطرتهـــا　　وأردفـــت آهـــةُ أخـــرى بـــآمين
ودبَّ في القلـــب مـــن تـــأموره ضـــرمٌ　　مـــا انفـــكَّ يُـــثلج صدري حين يُصليني

ذكرى عبد الناصر

- تلقى الشاعر وهو في براغ دعوة من لجنة الاحتفال بالذكرى الأولى لوفاة جمال عبد الناصر فنظم هذه القصيدة وألقاها في الاحتفال (بالقاهرة) سنة ١٩٧١.
- نشرتها جريدة "الأهرام" في عددها الخاص.

أكْبَرْتُ يومَك أن يكون رثاءَ ... الخالدون عهدتُهم أحياءَ
أوَ يرزقون؟ أجل، وهذا رزقُهم ... صِنوُ الخلودِ وجاهةً وعطاءَ[1]
قالوا: الحياةُ: فقلتُ دَيْنٌ يُقتضى ... والموتُ قيل فقلت: كان وفاءَ
يا أيها النسرُ المحلِّقُ يتقي ... فيما يميلُ عواصفاً هوجاءَ
ينقضُّ عجلاناً فيفلتُ صيدُهُ ... ويصيدُهُ إذ يحسنُ الإبطاءَ
أثني عليك وما الثناء عبادة ... كم أفسد المتعبدونَ ثَناءَ
دِيَةُ الرجال إساءتان: مقلِلٌ ... وأساء جنبَ مكثِّر وأساءَ
لا يعصمُ المجدُ الرجالَ وإنما ... كان العظيمُ المجد والأخطاءَ
لم يخلُ غابٌ لم يحاسبْ عنده ... أسدٌ بما يأتي صباحَ مساءَ

---

(١) صنو: قرين، مثيل هو والخلود مثلان.

تحـصَى عليـه العـاثرات وحـسبُه		مـا فـات مـن وثَباتـه الإِحـصاءَ
قـد كنـتَ شـاخصَ أمـةٍ نـسماتها		وهجيرهـا، والـصبحَ والإمـساءَ[1]
ألقـتْ عليـك غياضـها ومروجَهـا		واستودعتْكَ الرمـلَ والـصحراءَ[2]
كنتَ ابنَ أرضكَ من صميم ترابها		تُعطـي الثمـارَ ولم تكـن عنقـاءَ[3]
تتحـضَن الـسراءَ مـن أطباعهـا		وتلُـمُّ رغـم طباعـك الـضراءَ[4]
قـالوا: أبٌ بَـرٌّ فكانـت أمـةً		ألفـاً ووحدك كنت فيها البـاءَ[5]
خَبَطَـتْ كعـشواء عُـصوراً وانثنـت		مهزومـةً فأَثَرْتَهـا شـعواءَ
وانـصعتَ في سُود الخطـوب لئيمـةً		تُـسدي طلائعَـهُ يـداً بيـضاءَ
وبرِمـتَ بالطبقـاتِ يحلُـب بعـضُها		بعـضاً كمـا حلَـب الرعـاةُ الـشاءَ
وودِدتَ لـو لم تعـترف شـرّيْهما		لا الأغنيـاءَ بهـا ولا الفقـراءَ[6]
وجهـدتَ أن تُمـضي قضاءَك فيهمـا		لتُـشيد مجتمعـاً يفـيضُ هنـاءَ
أسـفاً عليـك، فـلا الفقـير كفيتـه		بؤسـاً، ولا طلـتَ الغـني كفـاءَ

---

(١) شاخص الأمة: نصبها ورمزها العالي.
(٢) غياض: جمع غيضة وهي ماء يجتمع فينبت فيه الشجر.
(٣) العنقاء: طائر خرافي معروف الاسم مجهول الجسم.
(٤) أطباعها: أطباع الأرض.
(٥) أي أنت كالباء للألف في كلمة "أب".
(٦) تعترف: تعرف.

قد كان حولك ألفُ جارٍ يبتغي ... هدماً ووحدَك من يُريد بناءَ
للّهِ صدرَك ما أشدَّ ضُلوعه ... في شدّةٍ وأرقهن رُخاءَ
تلج السياسةَ في تناقض حالها ... فتُطابقُ العزماتِ والآراء[1]
كراً وإحجاماً ورقةً جانب ... وصلابةً وسلاسةً ودهاءَ
ورأيتَ في "أسوان" قدرة ساحر ... يسعى ليوسع ميتاً أحياءَ
وبعثتَه حياً ودُستَ مشككاً ... وصَفَعْتَ همازاً به مشاءَ[2]
وقَمرتَ شر مقامر وكسبته ... وسلبته أوراقه السوداءَ[3]
وَرَددتَ كيدَ مكايدٍ في نحره ... واصطدته بشباكِهِ إغراءَ
ولففتَ رأسَ الأُفعُوان بذيله ... وقطَعْتَهُ وخطبتَها بَتراء[4]
وصنعتَ معجزةَ "القناة" ورُعتهم ... وسقيتَهمْ حممَ الجحيم الماءَ
وعصرتَ طاقاتِ الجموعِ ورُزْتها ... فوجدتها ولاّدةً عُشراء[5]
وجَسَستَ أوتار النُفوس فوقعت ... لك طُوَّعاً أنغامها السمراء[6]

(١) تطابق: تساوي.

(٢) هماز مشاء: نمام.

(٣) قمرت: غلبت.

(٤) وخطبتها بتراء: شديدة.

(٥) العُشراء: الحامل لعشرة أشهر أي مكتملة الحمل منتظرة النتاج، كناية عن النضج.

(٦) طوع: جمع طائع.

ألقــتْ إليــك قُلوبهــا وعُروقهــا سمحـاء مـا شـاء النـدى معطـاءَ
فـإذا نطَقـتَ ملكـتَ مهجـةَ سـامع وخــشوعها والــسمع والإصــغاءَ
وإذا ســكت أشــاع صــمتُك رهبــةً حتــى يُخــالَ كتيبــةً خرســاءَ[1]
يـا مـصرُ يـا حُلـم المـشارق كلِّهـا مُــذ عانــت الأحــلام والأهــواءَ
يـا بنـتَ "نيلـك" مـن عذوبـة جرسـهِ نغمــاتُ جــر رفــةً وصــفاء
وربيبــةَ "الهــرمين" شــاخاً إذ همـا يتبنيانــكَ صــبوةً وفَتــاء
تُلقــينَ في الــسراء ســحرَك كلــه وتمــوعين بــصبرك الــضراءَ
وتمــونين الــدهر ســبعاً خــصبةً يكفــى بهــا ســبعاً لــه جــدباءَ
مـشت القـرونُ، وخلَّفـت أسـحارها ترمــي عليــك الطــلَّ والأنــداءَ
والـصبحُ يـصبغُ وجنــةً مــشبوبةً والليــلُ يكحــلُ مقلــةً وطفــاء[2]
والــشمس تلفَــحُ سُــمرة عربيــةً والــنجم يــرقص قامــةً هيفــاءَ
ودَرجـتِ في حقـلِ "الحـضارة" غـضّةً وبدأتــه تفاحــةً خــضراءَ
يـا مـصرُ أحرُفـك الثلاثـةُ كنَّ لـي لــولا الغلــوُ الوجــدَ والإغمــاءَ
عــشرين عامــاً لم أزرْكِ وســاعةٌ مــنهن كانــت منيــةً ورجــاءَ
لمْ؟ لــستُ أدري غــير أن قــصائداً عـشرين لم تـشفعْ لـديكِ لقـاءَ

---

(١) الكتيبة الخرساء: الكتيبة: الجيش، الخرساء: الداهية.

(٢) المقلة الوطفاء: طويلة الهدب.

وظللــتُ أحْــسدُ زائريــك وخلــتُني ... رتعــاءَ تحــسد أختهــا العجفــاءَ[1]

في كــل حــدْبٍ ينـسلون ولم أكــنْ ... ـــ وهــواكِ ـــ فــيهم نـسلةً نكــراءَ

وَهَبي ثقيـلَ الظـل كنـتُ فلـم أُطـقْ ... فمـا أطقْـتِ ـ فـديتك ـ الـثقلاءَ

يــا مــصرُ لــي وطــنٌ أجــلُ عطــاءَه ... ويُحـــب فيَّ سماحــــةً وعطــــاءَ

يغــشى الــدُّروبَ علــيَّ حتــى إنــني ... لأكـــاد أفقـــدُ في الزحـــام رداءَ

وبمـــصرَ لـــي وطـــنٌ أطـــار بجـــوِّهِ ... مـــا لا أطـــار بغـــيره أجـــواءَ

أجــدُ العــوالمَ كلــها في ســفْحه ... ســبحانَ خــالقِ كونــهِ أجــزاءَ

يــا سِــدرةً في المنتهــى لم تعــترف ... إلا الظــلالَ الخــضر والأفيــاءَ[2]

عــاطي ظلالــك "ناصــراً" فلطالمــا ... عــاطى الجمــوع ظلالَــه وأفــاءَ

وعليــكَ يــا فخــر الكفــاح تحيــةً ... في مثــل روحــك طيبــةً ونقــاءَ

إن تقـضِ في سُـوح الجهـاد فبعـدَما ... سَـعَّرْت فيهـا الرمـل والرمـضاءَ

ولقــد حملــتَ مــن الأمانــةِ ثقلــها ... لم تُلْقهـــا برَمــــاً ولا إعيــــاءَ

نمْ آمنـــاً، ســـتُمد روحُـــك حـــرَّةً ... وسْــط الكفــاحِ رفاقــك الأمنــاءَ

---

(١) الرتعاء: الشبعانة السمينة. العجفاء: الجائعة المهزولة.

(٢) تعترف: تعرف.

يا ابن الثمانين

حسب "الثمانين" من فخر، ومن ... غشيانُها بجَنانٍ يافعٍ، خضلِ

طلقٍ كما انبلجَ الإصباحُ عن سحر ... نَدٍ، وزهرُ الربى عن عارض هطِل

وناعِمِ البال، نشوانَ بما نضَحت ... كأسُ الحياةِ، وما أبقتْ من الوَشَلِ

وحاضنٍ لبناتِ الدهر، مضْطلعٍ ... بما تصرف من بُرء ومن علل

"يا للثمانين" ما ملَّت مطارحَها ... لكي يُعاودها خوف من الملل

لم تأْلُ تنهلُ عبَاً من مرارتها ... وتستجمُّ على معسولة علل

نفسٌ تجيشُ بإعصار، وخافقةٌ ... تحن للكأس، والأسمار، والغَزل

كأن صحوَ الرُّؤى في كل نازلة ... يشدّني بطيوف الشارب الثمل

وأنت يا ابن "الثمانين" استرحتَ بها ... كما تظنّنتَ من لومٍ، ومنْ عذَلِ

جاءت تحييك في أعيادها قذَعٌ ... نكراءُ، لقنها الساداتُ للخَول

وفَّتْكَ نُذراً لها عما وفيتَ به ... من النذور لدُن أيامكَ الأول

يا ابن "الثمانين" صبراً أنت صاحبُه ... فيما تضيقُ به أضلاعُ مُحتمل

لا تأسَ إنْ عضّت البلوى بناجذة ... ما إنْ بها من عُضاضِ الناس من كلل

فلست باغي مثوباتٍ وما خُلقتْ كفُ الكريم لتستعدي على بدل

وقد تمرَّستَ بالدنيا تُمحِّصها في كل مَستدبر منها ومُقْتبلِ

وقد تشككتَ حتى لستَ ذا ثقةٍ بالنَّجْح إلا على هدْيٍ من الفشلِ

صبراً على فلذات الحر داميةٍ تُهدى على كفِ "حشاش" إلى "نغلِ"

وكن كعهدك "سَحاراً" بمعجزةٍ تحولُ الصَاب مسموماً إلى عسلِ

يَشفي ضميرك ما يُدْريكَ من حَزنٍ ويَسحقُ اليأسَ ما تجترُّ من أملِ

يا "ابن الثمانين" كم عُولجت عن المُغريات فلم تُشرقْ، ولم تملِ

كم هزَّ دوحَك من "قزْم" يُطاولهُ فلم ينلْهُ، ولم تقصر، ولم يَطُلِ

وكم سعت "إمَعاتٌ" أن يكون لها ما ثار حولك من لغو، ومن جَدَلِ

ثبتْ جَنانك للبلوى فقد نُصبَتْ لك الكمائنُ من غدرٍ، ومن خَتَلِ

ودَعْ ضميركَ يحذَرْ من براءته ففي البراءاتِ مَدعاةٌ إلى الزللِ

لئن تخلَصت من أنياب مهلكة فكم تلوَيت في أشراكِ مُحتَبلِ

لا تنسَ أنكَ من أشلاء مُجتمع يَدينُ بالحقد، والثارات، والدَّجل

يستنفرُ اليوم عن "أمس" إلى "غدِه" على "المذاهب"، والأنساب والمِللِ

حرب على كل "موهوبٍ" وموهبة لديه مُسرَجة الأضواء والشعَل

لو استطاع لغطّى الشمسَ عن حنَق وسَامَ رأدَ الضحى ذلاً من الطَّفَل

طبـــــائعٌ، عنجَهيــــاتٌ يغلِّفهـــــا ... مــن الحــضارة مــصبوغٌ مــن الحُلــلِ
وموكـبٌ مـوحش الأرجـاء مُـصحِرُها ... يمـشي "الحفُـاةُ" بـه في ظـل مُنتعـلِ
كنــتَ الغريــب بــه لا أنــت تألفــه ... فتـــــستريحَ، ولاعَنْــــه بمنعــــزل
ومـــا تـــزال علـــى رث الحِبـــال بـــه ... تلقـى الحيـاة بحبـل منـه متَّـصل
لم تُبـق في الـصُلب مـن أعرافـه "وثنـاً" ... إلا وعرّيـت، مـن "غـوثٍ" ومـن "هُبـلِ"
فكيــف تطمــع أن تُعفيــك ثاكلــةٌ ... أنـــت النـــذير لهـــا بالويـــل والثكـــل
عـــصرتهم فتحمَّـــل وضـــرة الثقـــل ... ودُســـــتهم فتوقـــع غـــضبة الخَـــول
نبئــتُ "شِـــرذمةُ الأذنـــاب" تنهـــشني ... بمـشهد مـن "رُمـاةِ الحـي" مـن "ثَعَـل"
يـا للحفيظـةِ لم تظفـرْ بـذي شَـممٍ ... ولـلــــشهامة ملقــــاةً علــــى طلــــل
أيـــشتثير دمـــي "وغْـــدٌ" و"صـــاحبُه" ... بمـــا يـــثير رمـــال الـــسَهْلِ والجبـــل
ولا ينـــدُّ فـــمٌ ـــ لا بَعـــدهُ خَـــرسٌ ... ولا تُمـــدُّ يـــد ـــ لا تـــشفَ مـــن شـــلل
لمـــن إذن خِلَـــقٌ مزعومـــة خُلقـــت ... اللـــــسريِّ؟ أم الأســـــتار والكُلـــــل؟
قــد كــان شــوطُ رجــولاتٍ مــشرفةٍ ... لـو كـان تحـت سِبال القَـوم مـنْ رَجُـل
وكـــان للنُبـــلِ ميـــدانٌ يُـــصال بـــهِ ... فلــم يجُــلْ مُــدعٍ مــنهم ولم يَــصُل
مَـنْ مُبلـغُ القـوم لم تعـرف دمـاؤهمُ ... طعـمَ "المهـاداةِ" عنـد الحـادث الجلـل
الخــــانعين بمنجـــــاةٍ تـــــسومُهُمُ ... جـدعَ الأنـوف، وذلَّ العـاجز الوكِـل

والمـــسلمين أخــــاهم في بليَّـــتِهم ... والهـاربين مــن العـدوى علــى عجــل
والنـاكثين بعهـدِ الحَـرفِ منتفـضاً ... علــى الـضغائن، والبهتــان، والــدجل
والمبـــصرين فـــإن عنَّـــتْ مُجلَّحَـــةٌ ... ففــي العيــون غِـشاوات مــن "الـسَّبل"
إن الحيـــاة معانـــاة وتــــضحية ... حـــب الـــسلامة فيهـــا أرذل الـــسبل
وللبطــولات جــولات، وكــم شــهدت ... سوح الوغى لحماة "الحرف" من بطل
وثـــم مـــن لعنـــةِ الأجيـــال جازيـــةٌ ... تقـــتصُ مـــن قولـــةٍ حـــقٍ ولم تُقَـــل
ومـــستفَزٍ لإخـــوان بمـــن حفِظـــوا ... عهــد "المــروءات" في حــلٍ ومرتحــلِ
ويــلَ "الكــذوبين" مــن يــوم يُــسَلُّ بــه ... مخضوضرُ القول من مستوبئِ العمل
مـا اقـرب الـشوطَ مـن "مرذولـة" سَفلِ ... و"ســاكتين" علــى "مرذولـــةٍ" سَـــفَل
أقــول "للخِــدن" مــا حالــت مَوَدتُــه ... فظـــنَّ أن عهـــود النـــاس لم تَحُـــلِ
سـلني أُجبـكَ بمـا يعيـا "الجـواب" بـه ... وإن ينـــل منـــك إشـــفاقٌ فـــلا تَـــسَلِ
فقـد تقرحـتُ حتـى العظـمِ مـن شـجنٍ ... دامــي الــشَكاةِ بلــوح الـصدر معتمــل
أُجبْـكَ عــن نُـصُبٍ أعـلامِ "مقلَمـة" ... غُفْـــلِ شــتاتٍ إذا كـــشَّفتهم هُمُـــلِ
"وللْتماثيــلُ" يُــستوحى بهــا "مُثُــلُ" ... خيرٌ مـن البـشرِ لا خـالين مـن "مُثُـلِ"
"خُـرْسٍ" وإن خَرقـوا الأسمـاع في هـذَر ... يُغثي النفوس، وفي مرصوفة "الجُمل"
وعـن "كـروشٍ" "زعامـاتٍ" كـأنَّ بهـا ... من فَرطِ ما اعتلفتْ مَسَاً من الحَبَل

الـضاحكين "بنـصف الـسن" كاشـرةً ... وينطِف "النصفُ" مطوياً على "دخل"
يـــستأسدون إذا مُـــدَّ العنــانُ لهــم ... فــإن يُــشدَّ تــردُّوا بــزَّة "الحَمَــل"
"ســتين عامــاً" أســاقيهمْ مشعــشعَةً ... مــن خــالصِ الـودِ، والأشـواقِ، والقُبـلِ
مـا ساءهم قَرحـةٌ تُشوى بهـا كبـدي ... ومــا يــسرّهم كحــل علــى المُقَــل
حتــى إذا مــسَني ضُـــرٌّ، وأســلمني ... غـدر "الجبـان" لجـرح غـير منـدمل
وكنـت إن ألتقـي "وغـداً" يجـشِمني ... "عــار النِــزال" بــلا حَــوْل ولا قِبَــل
مــروا "لئامــاً" علـى الظـامي وغلّتـهِ ... وعنـدهم كـلُّ مـا يَـشفي مـن الغلـل
وغــــادروه "بمُومــــاةٍ" كــــأنهم ... ليــسوا ذوي ناقــةٍ منــه ولا جَمَــل
يا "صاحبي" وحتوفُ القوم طَوْع يدي ... وكـم أتـتهم "ريـاح المـوت" مـن قِبَلـي
أجــلْ يراعَــك في آجــالهم مزقــاً ... فلـيس عنـدك بعـد اليـوم مـن أجـل
واضـرب بهـم أسـوأ "الأمثـال" سـائرةً ... حتــى تــثلِمَ فــيهم مــضربَ المَثَــل!

١٩٨٢

مصادر ومراجع الكتاب

- الجواهري جدل الشعر والحياة، الدكتور عبد الحسين شعبان، دار الكنوز الأدبية، بيروت ١٩٩٧.
- الجواهري: ذكريات أيامي، فاروق البقيلي، دار الفارابي - بيروت ١٩٧٤.
- الجواهري سيرة قرن، د. خيال محمد الجواهري، منشورات وزارة الثقافة السورية - دمشق ٢٠٠٤.
- الجواهري دراسات نقدية، أعدّها فريق من الكتاب العراقيين، أشرف على إصدارها هادي العلوي، بغداد ١٩٦٩.
- قضايا الشعر المعاصر، د. أحمد زكي أبو شادي، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٥٩.
- يحدثونك عن أنفسهم، هاني الخير ج٤، دمشق ١٩٨٩.
- الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش، د. ميشال خليل جحا، دار العودة - بيروت ١٩٩٩.
- حكايات مع الأدباء: محمد مهدي الجواهري، سليم طه التكريتي، منشورات رياض الريس للكتب والنشر.
- وقفة مع الجواهري، د. نجاح العطار: محاضرة ألقيت في النادي العربي بدمشق - شباط ١٩٨٤.
- ذكرياتي، محمد مهدي الجواهري، دار الرافدين - دمشق ١٩٩٨.
- ديوان الجواهري، الأعمال الكاملة، دار العودة بيروت ١٩٨٣.
- عودة إلى الماضي، بلند الحيدري، دار المتنبي - بيروت ١٩٩٣.
- مجلة الحوادث ١٩٨٢/١١/١٢.
- لقاءات شخصية بين معدّ هذا الكتاب وبين الشاعر الجواهري.

الفهرس